الجزائر والحملات الصليبية





الجزائر والحملات الصليبية

(١٥٤٧-١٧٩١م)

بسام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الطبعة الثالثة : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

الى الجزائر المجاهدة

التي عاشت أبداً في قلب العالم العربي الاسلامي
والتي عاش العالم العربي الاسلامي في قلبها
فكان ذلك الرباط الابدي الخالد

بسام

المقدّمة

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

ومع بداية هذا القرن تتعاظم فكـرة الجهاد الكامنة في العالم العربـي ـ الاسلامي وفي كل أنحاء العالم الاسلامي. وتتعاظم معها الهجمة لسرقة (التقاليد الحربية ـ الاسلامية) وتحريفها عن أهدافها وإفراغها من مضامينها. ومن هنا تظهر الحاجة للتمسك بأصالة الحروب الاسلامية والعودة الى ينابيعها المتفجرة ومواردها الأساسية التي لم يذبلها التقادم ولم يضعفها الصراع الدائم، فما يكاد لهيبها يخبو ظاهرياً حتى يعود متمرداً على كل أساليب الحرب الشاملة وطرائقها المتباينة.

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

وقد يكون ذلك مثيراً اقتران هذا الموعد الزمني بمضي ربع قرن على ثورة الجزائر الخالدة (يوبيلها الفضي) والتي حملت في أعماقها كل الأصالة الثوروية. وهي الأصالة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ. ويؤكد ذلك الحاجة لاستعادة ملامح الصراع في الحقب الزمنية المتقادمة. لقد كانت الحروب الاسلامية بمجموعها شكلا

متقدماً من مزج «طرائق الحرب الثوروية وطرائق الحرب النظامية».
غير أن التحولات التي رافقت الحروب الصليبية في المشرق العربي-الاسلامي، وفي المغرب العربي الاسلامي قد فرضت تطوراً حملت الجزائر المجاهدة راية (ريادته) وصدقت في هذا الدور الريادي، فشكلت بذلك ثروة ضخمة من التجارب القتالية التي لا بد من معرفتها لفهم (الأصالة الثوروية) في العالم الاسلامي بصورة عامة، وفي المغرب العربي - الاسلامي منه بصورة خاصة. لقد جابهت (الجزائر) ومعها أقطار العالم العربي -الاسلامي، تحديات ضخمة، وتعرضت لأعمال عدوانية كثيرة، لم يكن أقلها إخراج المسلمين من الأندلس، ولم يكن أقلها احتلال المدن الساحلية للمغرب العربي الاسلامي، وهنا ظهر (الاخوان ذوي اللحى الشقراء) فكان في ظهورهم بداية قيادة التحول الحاسم. وحملت الجزائر أعباء رفع راية الجهاد في سبيل الله، فكان التحول التاريخي من الدفاع الاقليمي الى الهجوم الاستراتيجي، وتعاظم تيار الجهد والجهاد، فجرف معه المتخاذلين، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت الجزائر المجاهدة قوة ضخمة فرضت سيادتها على (غرب البحر الأبيض المتوسط) وأحبطت كل أعمال العدوان ومحاولات المعتدين. وكان الفضل في ذلك للقدرة الذاتية التي عرف المسلمون فيها قوتهم وقدرتهم، وأمكن بهذه القدرة تحرير المغرب العربي - الإسلامي وتطهير ترابه.

لقد خاضت الجزائر المجاهدة حروبها تحت (راية الجهاد في سبيل الله) وانطلق تيار الجهاد من (المسجد- الجامع) ومن (الزاوية) حيث طلبة العلم وشيوخ التعليم، وكان هذا التيار من القوة، ومن الشدة ما حمل الحكام على ركوب أمواجه، وتنظيم مساراته، وتوجيه

فعالياته فكان اللقاء الخالد بين الحكام والمحكومين على صعيد الجهاد في سبيل الله، وكان في ذلك نصر الاسلام والمسلمين.

وحملت الخلافة العثمانية أعباء الجهاد في سبيل الله على جبهة أوروبا وفي شرق البحر الابيض المتوسط، وحملت الجزائر راية الجهاد في البر والبحر في الغرب (غرب البحر الأبيض المتوسط). وعلى صعيد الجهاد التقت الجزائر بالخلافة العثمانية، فكان في ذلك عز المسلمين وقوة الاسلام في المشرق والمغرب. وكانت قوة الجزائر قوة للخلافة العثمانية، وكانت قوة هذه قوة للجزائر، ويصبح من المتوقع أن تبقى هذه العلاقة الجدلية ثابتة، فعندما استنزفت الحروب المستمرة قدرة الخلافة العثمانية واصيبت بالضعف، انعكس ذلك على صفحة الجزائر التي استنزفت الحروب قدرتها بمثل ما استنزفت قدرة حليفتها. غير أن حصالة هذه (الحروب الطويلة الأمد) أكدت مجموعة من الحقائق أبرزها عمق (تيار الجهاد وقوته) فلا غرابة بعد ذلك أن تتعرض قاعدة هذا التيار للهجوم المستمر بأشكال مختلفة وطرائق متباينة. غير أن (التجربة التاريخية) كافية للتأكيد على فشل الهجمات كلها. وهذا هو أبرز درس يمكن استخلاصه.

ويبدأ القرن الخامس عشر للهجرة...

ومع بدايته تبرز مجموعة من الظواهر المذهلة، أهمها التمرد (على روح العصر- المودة أو الزي) في تيار المسلمين المجاهدين، وتجديد مفهوم الجهاد في سبيل الله ورفع رايته والعودة الى الالتزام بالعقيدة الدينية الاسلامية التي افرزت (العَقيدة القتالية الاسلامية) بكل فضائلها. ولقد فسرت هذه الظواهر تفسيرات مختلفة، وبذلت ولا تزال تبذل جهود علمية مكثفة للهجوم على القلعة (من الداخل).

غير ان التجربة التاريخية تعود لتؤكد (قوة الأصالة الاسلامية) وقدرتها على تجاوز كل التحديات.

وفي الواقع، عملت الجزائر المجاهدة على حفظ (التجربة التاريخية) والتدقيق فيها، وأقبل كُتّابُ المغرب العربي الاسلامي ومؤلفوه، وكُتاب الجزائر منهم بصورة خاصة على إعداد ثروة ضخمة من الكتب والمنشورات الدورية والبيانات والإحصاءات، والهدف من ذلك الإبقاء على جذوة الجهاد المتقدة، وحماية (الأصالة الثوروية) من الضياع. غير ان الجهد المبذول يفتقر الى التعميم من جهة، ويفتقر إلى سهولة المأخذ من جهة ثانية. ومن هنا ظهرت الرغبة في التعريف (بالحروب الثوروية الاسلامية) من خلال كتيبات تسهم في تعريف أبناء المشرق العربي الإسلامي بتراث المجاهدين الخالدين في المغرب العربي الاسلامي. وتساعد في الوقت ذاته أبناء المغرب العربي-الاسلامي على تطوير المعرفة العربية (ضمن إطار حرب التعريب) التي تقودها الجزائر ومعها أقطار المغرب العربي الاسلامي. وبعد، فقد يكون من المحال الإحاطة بكل جوانب التجربة التاريخية لجهاد الجزائر خاصة والمغرب العربي-الاسلامي عامة، وان هي الا محاولة في جملة محاولات «المحافظة على اصالة التجربة العربية الاسلامية» والافادة من خيراتها الرائعة.

والله أسأل التوفيق

بسام العسلي

أبرز الأحداث على المسرح الاسلامي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٥٠	١٥٤٣	اخضاع المجر للحكم العثماني
٩٧٨	١٥٧٠	استيلاء المسلمين على قبرص في عهد سليم الثاني (١٥٦٦ـ ١٥٧٤).
٩٧٩	١٥٧١	الاساطيل الصليبية المتحالفة تنتصر على الاسطول الاسلامي في (ليبانتي)
١٠١٢ ١٠٢٧	١٦٠٣ ١٦١٧	ثورة فخر الدين المعني في لبنان
١٠٤٣	١٦٣٣	هزيمة فخر الدين المعني.
١٠٥٥	١٦٤٥	الحرب ضد البندقية في كريت.
١٠٦٢	١٦٥١	انتصار الاسطول الصليبي للبندقية على الاسطول العثماني قرب بار وس
١٠٨٠	١٦٦٩	البندقية تتخلى عن كريت للعثمانيين.
١٠٨٣	١٦٧٢	بولونيا ـ بولنده ـ تتخلى عن بودوليا واوكرانيا للعثمانيين.
١٠٨٤	١٦٧٣	انتصار سوبيسكي على العثمانيين عند خوتين.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٠٨٧	١٦٧٦	انتصار سوبيسكي عند (لويج) وهزيمته عند زوراونو.
١٠٩٢	١٦٨١	العثمانيون يتخلون عن كييف للروس
١٠٩٨	١٦٨٦	العثمانيون على ابواب فيينا.
١٠٩٩	١٦٨٧	العثمانيون يخسرون المجر.
١١٠٠	١٦٨٨	هزيمة العثمانيين في معركة موهاج (موهاكس)
١٠٩٥	١٦٨٣	النمساويون يستولون على بلغراد
١١٠٢	١٦٩٠	العثمانيون يستردون بلغراد.
١١٠٨	١٦٩٦	بطرس الاكبر يستولى على آزوف وينتزعها من العثمانيين.
١١٢٣	١٧١١	هزيمة بطرس الاكبر عند نهر (البروث).
١١٢٤	١٧١٤	البندقية تخسر آخر ممتلكاتها في المورة وبحر ايجة لمصلحة العثمانيين.
١١٣٥	١٧٢٢	الفتوح الروسية في القوقاز.
١١٤٨-١١٥٢	١٧٣٥-١٧٣٩	انتصار العثمانيين على النمسا وروسيا.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١١٧٤	١٧٦١	معاهدة صداقة بين العثمانيين فريدريك الاكبر (بروسيا).
١١٨٤	١٧٧٠	الحرب ضد الروس وتدمير الاسطول العثماني في خليج جشمه.
١١٩٨	١٧٨٣	الامبراطورة كاترينا «الروسيا» تخضع تتار القرم.
١٢٤٣	١٨٢٧	الحلف الثلاثي ضد العثمانيين - معركة نافارين.

أبرز الاحداث على المسرح العالمي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٩٧	١٥٨٨	هزيمة الاسطول الاسباني وانتصار الاسطول الانكليزي.
١٠٢٩	١٦١٩	حرب الثلاثين عاماً بين الكاثوليك والبروتستانت في جرمانيا.
١٠٥٠	١٦٤٠	تحرر البرتغال من هيمنة الاسبانيين.
١١١٤	١٧٠٢	بدء حرب الوراثة الاسبانية التي استمرت ١٢ سنة بين فرنسا وانكلترا وخرجت انكلترا منتصرة على اسبانيا وفرنسا.
١١٢٥	١٧١٣	صلح اوتريخت ونهاية حرب الوراثة الاسبانية.
١١٩١	١٧٧٧	حرب الاستقلال الامريكية - معركة ساراتوغا.
١١٩٨	١٧٨٣	نهاية حرب الاستقلال الامريكية.
١٢٠٤	١٧٨٩	انفجار الثورة الفرنسية.
١٢١٣	١٧٩٨	غزو نابليون بونابرت لمصر والشام.
١٢١٦	١٨٠١	بدء الحروب النابليونية.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
١٢٣١	١٨١٥	انتصار الحلفاء على فرنسا وعودة لويس الثامن عشر.
١٢٣٣	١٨١٧	اعتراف الدولة العثمانية باستقلال العرب الاداري.
١٢٤٠	١٨٢٤	الثورة في اليونان. وابراهيم باشا ـ ابن محمد علي الالباني يقود اسطوله الى كريت واليونان.
١٢٤٣	١٨٢٧	القوات الفرنسية تجتاح اليونان وتخرج القوات العثمانية لتنفيذ قرار لندن. والامبراطورية العثمانية تعترف باستقلال اليونان.
١٢٤٤	١٨٢٨	الحرب الروسية ـ التركية واستقلال رومانيا.
١٢٤٦	١٨٣٠	ثورة فرنسا، وخلع شارل العاشر في فرنسا وتنصيب لويس فيليب وبدء العدوان على الجزائر.

أبرز الاحداث على مسرح الجزائر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الاحداث
٩٥١-٩٦٠	١٥٤٤-١٥٥٢	ولاية حسان خير الدين على الجزائر.
٩٦٠-٩٦٥	١٥٥٢-١٥٥٧	ولاية محمد صالح رايس على الجزائر.
٩٦٥-٩٧٤	١٥٥٧-١٥٦٦	عودة حسان خير الدين على الجزائر.
٩٧٤-٩٧٦	١٥٦٦-١٥٦٨	ولاية محمد صالح رايس على الجزائر
٩٧٦-٩٩٦	١٥٦٨-١٥٨٧	ولاية كلج علي (الحاج علي) على الجزائر.
٩٩٦-١٠٧٠	١٥٨٧-١٦٥٩	نظام حكم (الباشوات الثلاثيين) في الجزائر.
١٠٧٠-١٠٨٢	١٦٥٩-١٦٧١	نظام حكم (آغة الهلاليين) في الجزائر.
١٠٨٢-١٢٤٦	١٦٧١-١٨٣٠	نظام حكم (الديوان والداي) في الجزائر.
١٢٤٦	١٨٣٠	بدء احتلال فرنسا للجزائر.
٩٦٣	١٥٥٥	طرد الاسبانيين من بجاية.
٩٦٦	١٥٥٨	انتصار المسلمين في مستغانم.
٩٦٨	١٥٦٠	هزيمة الاسبان في مستغانم.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩٧٧	١٥٦٩	ثورة المسلمين في الاندلس وارسال الاسطول الجزائري.
٩٨١	١٥٧٣	تحرير تونس.
١٠٣٠	١٦٢٠	الانكليز يهاجمون الجزائر.
١٠٧٥	١٦٦٤	الحملة الافرنسية على جيجل.
١٠٧٦	١٦٦٥	الاسطول الافرنسي يقصف الجزائر وتونس.
١٠٩٤	١٦٨٢	فرنسا تقوم بالإغارة على الجزائر.
١١١٩	١٧٠٧	تحرير وهران وإخراج الاسبانيين.
١١٤٥	١٧٣٢	محاولة اسبانيا إعادة احتلال وهران ونجاح العملية.
١١٨٧	١٧٧٣	اسبانيا تغير على الجزائر.
١١٨٩	١٧٧٥	الحملة الاسبانية الكبرى على الجزائر وفشلها.
١٢٠٦	١٧٩١	تحرير وهران.



﴿يا أيها الذين امنوا قاتِلوا الذَين
يَلُونكم من الكُفار ولْيجدُوا فيكم
غلْظَة وآعْلَموا أنّ الله مَعَ المُتقينْ﴾

(سورة التوبة ـ الآية ١٢٣)

الفصْلُ الأوّل

١ـ الجزائر المجاهدة

٢ـ الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق

آ ـ معركة ليبانتي ١٥٧١ م

ب ـ الجهاد على الجبهة الاوروبية

ج ـ تمرد جنبلاط وفخر الدين المعني

٣ـ الموقف على جبهة الأندلس

١ـ الجزائر المجاهدة

أصبحت الجزائر مؤهلة لمجابهة كل عدوان، فهي تمتلك قدرات قتالية رائعة، ولها أسطولها الحربـي المستقل ولها إدارتها الذاتية، وإن لم تكن قد عرفت بعد الحدود المميزة بينها وبين جارتيها في المشرق والمغرب. وقد ألقى ذلك عليها واجب قيادة الجهاد في سبيل الله في المغرب العربي الاسلامي كله ذلك هو الوضع الذي كانت عليه الجزائر بعد تلك الجهود الضخمة والتضحيات الكبيرة التي قدمها الشعب في المغرب الاوسط تحت قيادة (خير الدين بربروس) وبالتعاون معه حتى أبعد الحدود، ولكن قبل أن يمضي (خير الدين) الى جوار ربه سبقـه رفيق جهاده ونائبه على الجزائر (محمد حسن آغا). وعلى أثر ذلك أصدر السلطان سليمان القانونـي قراره بتعيين (حسان) الإبن الوحيد لخير الدين بربروس، والياً على الجزائر، وكان ذلك وفاء لما قدمه خير الدين من الجهد للإسلام والمسلمين، واستجابة لرغبة الجزائريين. وبرهن (حسان خير الدين) أنه جدير بالثقة التي منحها له الجزائريون، فتولى قيادة الجهاد في سبيل الله، بكل ما ورثه عن أبيه من كفاءة وتجربة، وبكل ما توافر له من العزم والتصميم والاخلاص.

وقد جابهته منذ بداية عهده في الولاية قضية (تلمسان)؛ حيث كان حاكمها (أبو زيان ـ أحمد الثانـي) قد تولى الملك بدعم من إدارة

الجزائر، واعترف بالوحدة مع الجزائر. غير أنه ما لبث أن خضع للمؤامرات الخارجية وانساق في تيارها وأخذ في التقرب من الاسبانيين والابتعاد عن أهله وابناء دينه الجزائريين. وأدى ذلك قبل كل شيء إلى تدهور علاقاته مع قومه وأعوانه في تلمسان الذين ما لبثوا أن قرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد اخوته (الحسن). فتوجه (أبو زيان) إلى (وهران) طالباً الدعم من الاسبانيين، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على إخلاصه وتبعيته لهم. وقرر حاكم وهران (الكونت د. الكوديت) اغتنام هذه الفرصة، فجهز جيشه، وانضمت اليه جموع الخاضعين للاسبانيين من (بني عامر وفليته وبني راشد - وعلى رأسهم قائدهم المنصور بن بوغانم) وتقدموا الى تلمسان لإبعاد ملكها الحسن وإعادة تنصيب (أبو زيان) على عرش المدينة. وما ان علم (حسان خير الدين) بتحرك الجيش الإسباني وحلفاؤه من وهران، حتى قاد الجيش الإسلامي، وانطلق من الجزائر في محاولة للسيطرة على محاور التحرك ومنع الاسبانيين من الوصول إلى هدفهم. وبذلك يتمكن من دعم حليفه الملك الحسن في تلمسان، وذلك في شهر آب - أغسطس - ١٥٤٧.

اصطدمت قوات المسلمين بالقوات الاسبانية عند بلدة (عربال) الواقعة على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الجنوب من وهران (والى أسفل البحيرة المالحة). واستعد الطرفان للمعركة، ولكن قبل وقوع الاشتباك بوغت (حسان خير الدين) بخبر وفاة أبيه، وأعقب ذلك موجة من الذهول والاضطراب اجتاحت المغرب الاسلامي، وخشي (حسان) أن يؤدي ذلك الى ظهور احداث خطيرة في عاصمة الدولة، فقرر العودة فوراً الى الجزائر، ونظم قواته، وانسحب في اتجاه (مستغانم). وأدرك (الكونت د. الكوديت) سبب هذه الحركة إذ كان

قد عرف بدوره خبر وفاة (خير الدين بربروس) وما أحدثه ذلك من الشعور بالفراغ المريع، فقرر بدوره اغتنام هذه الفرصة، ومطاردة (حسان) على أمل تحويل عملية الانسحاب إلى هزيمة لقوات المسلمين تساعده على احتلال (مستغانم). غير أن (حسان) وصل الى مستغانم بكامل قوته، في الوقت الذي استولى الاسبانيون على (مازغران) دونما قتال. وفي (مستغانم) عقد (حسان) مؤتمراً مع القادة من أهل المدينة والمجاهدين فيها. وتقرر الدفاع عن المدينة، وصد العدو عنها مهما بلغ الثمن، ومهما تطلب ذلك من جهد وتضحيات. وتوجه الرسل من (مستغانم) لاستنفار الغرب واستقدام قوة الحامية المدافعة عن تلمسان. ووصلت القوات الاسبانية إلى أمام أسوار (مستغانم) حيث احتدم القتال طوال ثلاثة أيام متوالية، ولما لم يكن الاسبانيون يتوقعون مثل هذه المقاومة، فقد أصيبوا بخيبة أمل مريرة، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمهم على احتلال المدينة وأدى ذلك إلى تصعيد حدة القتال.

وأثناء ذلك، كانت حامية تلمسان قد انطلقت للجهاد، وانضمت اليها جموع المجاهدين، ووصلت هذه القوات إلى ميدان المعركة يوم ٢١ـ آب (أغسطس) فحدث نوع من التوازن في القوى. وقام الاسبانيون بهجوم قوي على المدينة، وأمكن لهم خمس مرات رفع راياتهم فوق بعض أسوارها. وكان المجاهدون في كل مرة يقومون بهجوم مضاد يطردون فيه الاسبانيين من المواقع التي يحتلونها، ويسدّون الثغرات التي تظهر في مواقعهم الدفاعية. واستمر الصراع المرير حول (مستغانم) أسبوعاً كاملاً. وعرف (الكونت د. الكوديت) أنه أخطأ في تقدير الموقف. وأنه لا قبل له في الاستمرار بخوض معركة تستنزف قوته في حين كانت قوات المسلمين تتعاظم باستمرار.

وقرر رفع الحصار والعودة بقواته الى قاعدته (بوهران) وبدأ بتنفيذ الانسحاب بعد غروب شمس يوم ٢٨ آب - أغسطس -. غير أن قادة المجاهدين قرروا عدم إتاحة الفرصة للاسبانيين للقيام بانسحاب منظم. فقاد (حسان خير الدين) قوات المسلمين المكونة من (١٥) ألف من المشاة و(٣) آلاف من الفرسان، وأخذ في مطاردة القوات الاسبانية خلال كل مرحلة من مراحل تحركها، وتضييق الخناق عليها باستمرار. وسيطر الذعر على القوات الاسبانية من جراء هذه المطاردة العنيفة. وحاول قائدها جمع الفاريـن من جيشه والقيام بهجوم مضاد لإيقاف مطاردة قوات المسلمين، غير أن جنوده كانوا يفكرون بالفرار أكثر من تفكيرهم بخوض المعركة. ولهذا كان الهجوم المضاد ضعيفاً. ولم تتمكن القوات الاسبانية من الوصول إلى وهران إلا بعد جهود مضنية. وأفاد (أبو زيان) من بقاء تلمسان دونما حامية تدافع عنها، فهاجمها برجاله واستولى عليها وأعاد حكمه إليها.

رجع (حسان) إلى عاصمته (الجزائر) واستقر فيها، وأخذ في الاستعداد لمتابعة الجهاد الداخلي من أجل بناء الجزائر وتوحيدها، ومن أجل تطوير اعمال الجهاد الخارجي ضد الاعداء. وكان هدفه الاول هو استعادة (تلمسان) وتحريرها من عميل الاسبانيين (أبازيان).

خلال هذه الفترة كان المغرب الاقصى (مراكش) يشهد تطورات حاسمة على أيدي (الأشراف السعديين)[1] الذين أخذوا

---

(١) هناك خلاف على أصل هؤلاء السعديين، فقد جاء في (الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى) ما يلي: «اعلم ان هؤلاء السعديين كانوا يقولون أن أصل سلفهم من (ينبع النخل) من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية - رضي الله عنه - واليه يرفعون نسبهم. غير ان المولى محمد بن الشريف السجلماسي، أول ملوك العلويين، طعن في نسبهم، وصرح بذلك في بعض رسائله التي وجهها الى الشيخ بن زيدان وقال =

على عاتقهم تحقيق امرين عظيمين: أولهما إنقاذ المغرب الأقصى من البرتغاليين. وثانيهما إنقاذ المغرب الأقصى من الانهيار الداخلي الذي وصلت إليه البلاد تحت حكم بني وطاس (المرينيين). وأقبل الشعب في المغرب الأقصى على دعم السعديين لتحفيق هذه الاهداف وقيادة حركة الجهاد. فأمكن للسعديين بذلك خوض مجموعة من المعارك والاعمال القتالية التي انتهت بتحرير السواحل المغربية من أيدي البرتغاليين. ولم تقبل سنة (١٥٤٠) حتى أمكن لهم إخراج البرتغاليين نهائياً من مقاطعة الدوكالة بكاملها. ومع هذه الانتصارات الخارجية، كان السعديون يمهدون لإقامة ملك جديد على أنقاض (الملك المريني المنهار) وجعلوا من مدينة (مراكش) عاصمة لهم.

وما إن استقر مؤسس دولة السعديين (محمد المهدي ـ ابو عبد الله الشيخ) في (مراكش) حتى انصرف لبناء جيش قوي ضم إليه المقاتلين من أبناء المغرب كله. وكان يتابع التطورات في البلد المجاور (الجزائر) فعز عليه استيلاء الترك عليه، باعتبارهم غرباء عن هذا الإقليم، وكان يقبح على أهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم. وفي الوقت ذاته كان يخشى ما يقوم به زعيم الوطاسيين (أبو حسون) من تحريض للبرتغاليين والاسبانيين ضد بلاده، والانطلاق في العدوان من (تلمسان) فقرر الاستيلاء عليها وعلى المغرب الأوسط بكامله (الجزائر). وفي سنة (١٥٠٠م) وجه جيشاً قوياً بقيادة ابنه (الشريف محمد الحران) بمهمة الاستيلاء على تلمسان. وتولى بعد

= فيها: وقد اعتمدنا في ـ الطعن بنسبكم ـ على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر، فما وجدوكم الا من بني سعد بن بكر» أي من بني سعد الدين منهم حليمة السعدية ـ مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ (حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٣٢٥).

ذلك تجهيز جيش آخر انطلق به (من فاس) لاحكام الحصار على تلمسان واخضاعها. غير أن أهل تلمسان قاوموا عملية الحصار بضراوة، واشتبكوا مع قوات السعديين مرات كثيرة قتل أثناءها (الحران) بن (الشريف محمد) والذي اشتهر بكفاءته القيادية العالية وشجاعته. وبعد حصار دام تسعة أشهر، أمكن للشريف محمد اقتحام تلمسان وكان ذلك يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادي الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة للهجرة (١٥٥٠م) وأخرج الاتراك منها، وامتد حكمه ليشمل الاقليم التابع لها حتى (وادي شلف).

كان (حسان خير الدين) أثناء ذلك قد جهز جيشاً قوياً يضم (٥) آلاف رجل من المجاهدين الجزائريين (من المشاة المسلحين بالبنادق) و(ألف) فارس و(٨) آلاف مقاتل من مجاهدي جبال زواوة (تحت قيادة السيد عبد العزيز سلطان قلعة بني عباس). وغادرت هذه القوة (الجزائر) في سنة (١٥٥٠) وهدفها مدينة (وهران) لانتزاعها من قبضة العدو الاسباني، واستثمار النصر الذي تم إحرازه عليها تحت اسوار (مستغانم).

علم (حسان خير الدين) وهو في طريقه إلى (مستغانم) بأن قوات السعديين قد احتلت تلمسان ومستغانم، وأنها تتابع تقدمها نحو مدينة الجزائر، وقد وصلت في طريقها إلى مجرى (نهر الشلف). وعند ذلك، تم تشكيل قوة جزائرية تولى قيادتها (حسان قورصو) وتوجه بها فوراً الى مجرى (نهر الشلف) حيث التقى بقوات السعديين ودارت رحى معركة ضارية، انتهت بهزيمة السعديين، واستثمر (حسان قورصو) النصر بأن وجه قوة بسرعة الى (مستغانم) أمكن لها اخراج السعديين منها. وتابعت القوات الجزائرية تقدمها في اتجاه المغرب الاقصى. غير أن (الشريف محمد المهدي) شكل جيشاً يضم

(٢٠) ألف مقاتل بمجرد عودته من المعركة. وأسند قيادة هذا الجيش إلى ابنه (الشريف عبد القادر) بمهمة إيقاف تقدم الجزائريين. واصطدمت القوتان عند حدود المغرب (بجوار قبة سيدي موسى). وتلقى المجاهدون من (زواوة) الصدمة الاولى، ثم تبعهم بقية الجيش الجزائري. ودارت معركة قاسية خاضها الطرفان بعناد، وانتهت بمصرع قائد الجيش السعدي (الشريف عبد القادر) وتراجع جيشه إلى ما وراء نهر الملوية. وعادت القوات الجزائرية بعد ذلك إلى (تلمسان) التي بقيت بدون حاكم لها، فتم تنصيب الامير الحسن بن عبد الله الثانـي ملكاً عليها. غير أن هذا الملك كان ضعيفاً، فتولى ممارسة السلطة الفعلية فيها القـائد العثمانـي (سفطة). واكتفى الملك بالانصراف إلى حياته الخاصة التي لم تكن (فاضلة) مما أثار الشعب عليه واجتمـع مجلس العلماء فأعلن خلعه (سنة ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤م) وأعلن (صالح رايس) يومئذ نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان نهائيا الى دولة الجزائر. أما الملك السابق (أحمد الثالث) الذي أبعده الاشراف السعديون عند احتلالهم تلمسان، والذي ساءت سيرته بسبب اعتماده على الاسبانيين في حكم (تلمسان) فانه مات في وهران.

كان سلطان المغرب الأقصى (الشريف محمد المهدي) قد عمل عند احتلاله لمدينة فاس (سنة ٩٥٦ هـ) على إلقاء القبض على كل الوطاسيين من أبناء (بني مرين) وأرسل بهم مقيدين بالاغلال الى مدينة (مراكش) وكان لهم أنصارهم (بصورة خاصة من النازحين الأندلسيين) فساءهم ما لقيه هؤلاء من سوء المعاملة، وكان آخر ملوكهم (أبو حسون) قد نجا بنفسه، وأخذ بالدعوة لشخصه ولبني وطاس المرينيين. ولما وقعت الحرب بين المغربيين والجزائريين في معركة

(نهر الشلف) وعلم السلطان سليمان القانوني بذلك ساءه وقوع الحرب بين المسلمين. فأرسل وفداً من كبار العلماء يرأسه الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي (الطرابلسي الأصل الجزائري المستقر) بمهمة توطيد السلام. ووصل هذا الوفد إلى مدينة (مراكش) وفاوض سلطان المغرب (الشريف محمد المهدي) باسم السلطان سليمان حول النقاط التالية:

اولاً: اعتراف السلطان العثماني بالاستقلال التام لدولة المغرب مقابل اعتراف هذه الدولة بالخلافة العثمانية، جمعاً لوحدة المسلمين، وذلك بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر.

ثانياً: اطلاق سراح المقيدين المنكوبين من (بني وطاس المرينيين) والتخفيف من ضائقتهم، إذ لا يجوز شرعاً أن يغل جماعة من المسلمين.

ثالثاً: تحديد الحدود بين مملكتي الجزائر والمغرب الأقصى.

وطال النقاش حول هذه النقاط، ولم يوافق سلطان مراكش السعدي على الاعتراف بخلافة آل عثمان على المسلمين، كما لم يقبل تدخلهم في أمر بني وطاس، غير أن وساطة العلماء أسفرت عن اتفاق حول الحدود الفاصلة بين دولتي المغرب والجزائر، من ساحل البحر إلى بداية الصحراء. وهي الحدود التي ما زالت كما هي حتى اليوم، **وكانت سنة (٩٦١ هـ = ١٥٥٣ م) هي بداية تحديد (حدود دولة الجزائر ككيان مستقل).**

انصرف (حسان خير الدين بربروس) بعد ذلك الى تحقيق أهداف ثلاثة:

اولاً: جمع وحدة البلاد، وإرساء قواعد الدولة على أسس

راسخة، وتحصين الثغور استعدادا لمجابهة كل عدوان.

ثانياً: تحرير المدن الجزائرية التي احتلتها القوات الاسبانية وأقامت حاميات فيها، وخاصة بجاية ووهران.

ثالثاً: بعد تطهير وهران، قيادة المجاهدين في سبيل الله من أبناء المغرب العربي الاسلامي ودعم بقايا المسلمين في الاندلس، لقهر الاسبانيين في بلادهم، وإقامة دولة إسلامية جديدة، حيث كانت تقوم مملكة غرناطة من قبل عهد قريب.

ونجح (حسان خير الدين) في تحقيق هدفه الأول بسرعة مذهلة، بفضل ما عرفه الجزائريون وأبناء المغرب من اخلاص واليهم وصدقه وحسن سياسته. وقسم المملكة الى مقاطعة غربية، ومقاطعة جنوبية ومقاطعة عامة. وأطلق على كل مقاطعة اسم (بايليك) ووضع على رأسها حاكمًا يدعى (الباي) أما المقاطعة العامة فهي (دار السلطان) وتشمل الجزائر وما حواليها، وتحكمها الإدارة المركزية مباشرة. وباي الشرق مركزه قسنطينة. وباي الغرب مركزه (وهران ـ بعد فتحها) وقد استقر مؤقتاً بمازونة وبمعسكر. أما باي الجنوب، فمركزه مدينة المدية. ويحكم الشعب شيوخ منه، تحت إمرة ونظر البايات ويدعى هؤلاء الشيوخ (شيوخ الوطن). وهم: (شيخ وطن بني خليل، وشيخ وطن بني موسى، وشيخ وطن يسر، وشيخ وطن سباو، وشيخ وطن بني جعد، وشيخ وطن بني خليفة، وشيخ وطن حمزة، وشيخ وطن السبت، وشيخ وطن عريب، وشيخ وطن بني مناصر، وشيخ وطن الفحص ـ متيجة).

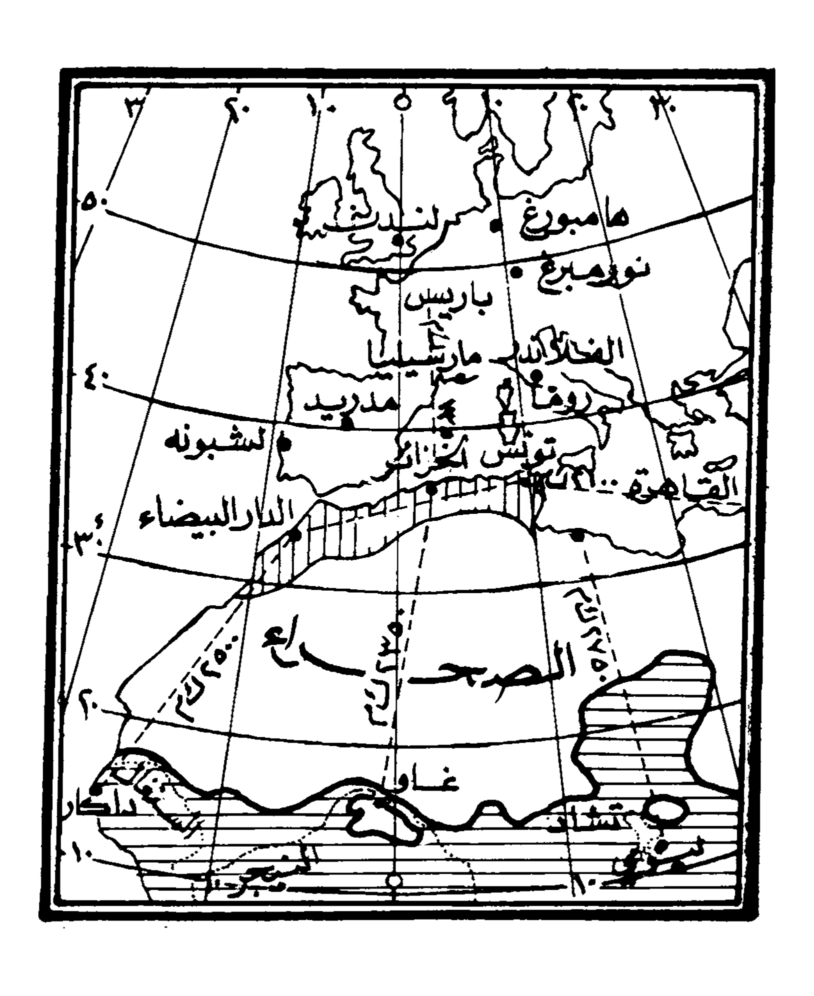
وأظهر حسان خير الدين اهتمامه الكبير بتحصين الثغور، وقد استخلص من مجموعة التجارب القتالية السابقة أن (كدية الصابون)

تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً، حيث كانت القوات الاسبانية الصليبية تعمل في كل مرة على احتلال هذا الموقع المشرف على مدينة الجزائر- من خلفها- وحيث تستطيع مدفعية العدو تدمير الجزائر إذا ما أمكن لها احتلالها. ولهذا أمر ببناء معقل منيع، وحصن شامخ يرتفع فوق تلك الربوة التي تعلو مائتي متر تقريباً عن سطح البحر[1] ثم أخذ في الاستعداد لتنفيذ الهدف الثاني وهو تحرير وهران وتلمسان.

انتهج (حسان خير الدين) سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالسلطنة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت فرنسا على الافادة من الحريات الاقتصادية الواسعة التي منحتها لها معاهدتها مع استامبول والتي شملت كل بلاد السلطنة العثمانية غير أن (حسان خير الدين) لم يلتزم بذلك، وأعلن عن عدائه لفرنسا في مناسبات كثيرة، فما كان من فرنسا الا أن أرسلت سفيرها المعتمد في استامبول الى الجزائر، بهدف معرفة المدى الذي سيصل اليه (حسان) في عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا والجزائر. واجتمع سفير فرنسا بالامير (حسان) وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية- الاسطول والرجال- لتنفيذ مشروعه في غزو اسبانيا ونجدة مسلمي الاندلس. لكن (حسان) رفض هذا العرض، وأعلن بصراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، فاكد بذلك القاعدة الثابتة (وهي عدم

---

(١) مـا زالت هذه القلعة موجودة حتى اليوم، وقد عمل الجزائريون على تدميرها في تموز - يوليو - ١٨٣٠، يوم اجتاحت قوات الاستعمار الفرنسي الجزائر. واعاد الافرنسيون بناءها وتحصينها. وتدعى القلعة رسمياً باسم (سلطان قلعة سي- أي- قلعة السلطان). أما الشعب الجزائري فما زال حتى اليوم ينسبها الى بانيها الأول، ويدعوها باسم (برج مولاي حسان) -حرب الثلاثمائة سنة - احمد توفيق المدنـي- ص ٣٣٣.



موقع المغرب العربي الإسلامي من العالم

الانتصار بكافر على كافر). ورجع السفير الإفرنسي إلى استامبول، وأفاد من نفوذه الواسع للتأثير على رجال الديوان، وأوغر صدر السلطان بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسان، ومحاولاته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام). فقرر الديوان السلطانـي دعوة (حسان) إلى استامبول لمجابهته بالأمر ومعرفة نواياه السياسية ومدى مطامعه. وغادر حسان مدينة الجزائر مؤقتاً. وخلفه على ولاية الجزائر في نيسان- ابريل- سنة **١٥٥٢** م ذلك القائد الشهير (صالح رايس).

الجزائر عند ظهور الأتراك العثمانيين

٢ـ الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق

ذلك هو الموقف على ساحة المغرب العربي الاسلامي ،في بداية تكون دويلاته المستقلة، والتي أصبحت خاضعة (بصورة رسمية) للخلافة العثمانية، ووقع عبء الجهاد على العالم الاسلامي في مشرقه ومغربه. وهكذا وبينما كانت الجزائر تبني قدرتها الذاتية لما فيه قوتها وقوة العرب المسلمين، كانت الامبراطورية العثمانية تخوض صراعاً مريراً على كل جبهاتها وبصورة خاصة على جبهتها الاوروبية وفي البحر الابيض المتوسط وكان أسطول الجزائر ينضم إلى الأسطول العثماني عند وقوع أي معركة بحرية، كما كان الاسطول العثماني يسرع لنجدة الجزائر في كل مرة تتعرض فيها للعدوان. وقد وضع (خيز الدين بربروس) أساس هذه السياسة الاستراتيجية وترك للامبراطورية اسطولاً قوياً. وعلى الرغم من المعاهدة التي عقدت مع النمسا في شباط- فبراير- ١٥٦٨ م، فقد استمرت البندقية في اعمالها العدوانية متخذة من قبرص قاعدة لها وتمكن (اليهودي يوسف ناسي)الذي كان أثيرا عند السلطان(سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤) من اقناع السلطان بضرورة شن الحرب على البندقية بعد أن امتنعت هذه من تنفيذ ما طلبه السلطان اليها. وتمكنت الجيوش العثمانية من احتلال قبرص دون كبير عناء .وكان أسطول (البندقية) يرابط في تلك

الاثناء على شواطىء كريت في انتظار النجدة تأتيه من الغرب. غير أن هذه النجدة لم تصل في حينها.

آ- معركة ليبانتي:

عند ذلك هب البابا وأعوانه لتدارك هذا الموقف بكل الوسائل الروحية والمادية. فأمر قداسته بقرع الأجراس والنواقيس، كل يوم ظهراً، لاجتماع الأتقياء في الكنائس والتضرع اليه تعالى أن ينقذ أوروبا من خطر المسلمين. وأرسل البابا سفراءه إلى كل مكان للتحريض على الحرب. وكللت نتيجة مساعيه بالنجاح، فتم عقد محالفة ثلاثية بين البندقية (فينيسيا) واسبانيا والبابا سنة ١٥٧١م. بهدف تدمير القدرة البحرية الاسلامية التي باتت تهدد البندقية بصورة خاصة والتي كانت تحتل كورفو وكريت (بالاضافة إلى قبرص التي تم انتزاعها منها). كما اندفعت اسبانيا الى هذا الحلف على أمل التخلص من تهديد الأسطول الجزائري. واندفعت شعوب البلدان الكاثوليكية المتحالفة لدعم الجهد الحربي. وتطوع الاشراف والامراء من كل أصقاع أوروبا حتى لم تبق أسرة من أشراف أوروبا ونبلائها إلا ولها من يمثلها في تلك الحملة الصليبية.

أرسل ملك اسبانيا (فيليب الثاني) أسطولاً من (٢٢) بارجة و(٨) آلاف جندي وبحار بقيادة الاميرال (جان اوستريا). وأرسلت (جنوا) أسطولاً بقيادة الاميرال (دوريا) كما أرسلت صقليا ونابولي أسطولاً بقيادة الاميرال المركيز (سانت كروز)، وأرسل البابا بدوره أسطوله بقيادة أميراله (انطونيو كولونيا). وارسلت فينيسيا أكبر أسطول بقيادة الاميرال (بروفيدينور بربريجو). واجتمعت الاساطيل المتحالفة في مرفأ مسينا في شهر ايلول (سبتمبر) ١٥٧١. وأسندت

معركة ليبانتي الكبرى

قيادة هذا الاسطول الموحد إلى ملك النمسا (دون جوان) حيث بلغ عدد بوارج هذا الاسطول (٢٠٠) بارجة.

وكان الاسطول العثماني لا يقل في عدده عن الاسطول المتحالف، غير أن الاسطول الصليبي كان متفوقاً في مدفعيته. وقد زادت قوته عندما انضم اليه اسطول الجزائر الذي كان يضم (٤٠) قطعة حربية بقيادة أمير البحر الجزائري. فتوجه هذا الاسطول الاسلامي بمجموعة من الاغارات على سواحل كريت والجزر الإبرنية. ودخل خليج (لبانتي ـ أوناوباقتوس القديمة) يوم ٧ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ. وتحرك الاسطول الصليبي. فمر بمضيق أتيكا وسينالونيا ورأس ماراتيا، حتى التقى بالاسطول العثماني في مياه (ليبنتو) الواقعة على الشط الشمالي من بر اليونان المحاذي لخليج (كورينث). كان من رأي قادة الاسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالاسطول الصليبي غير أن القائد العام (الاميرال علي باشا) صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه (حيث كان عدد بوارجه ٢٣٤ بارجة). ونظم (الاميرال علي باشا) قواته، فوضع بوارجه على نسق واحد ـصفـ من الشمال الى الجنوبـ بحيث كانت ميمنتها تستند الى مرفأ ليبنتو، وميسرتها في عرض البحر. وقد قسمها الاميرال علي باشا إلى جناحين وقلب، فكان هو في القلب، وسيروكو في الجناح الايمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة أمير البحر الجزائري (علوش باشا).

ومقابل ذلك نظم الاميرال (دون جوان) قواته، فوضع بوارجه على صف (نسق) يقابل النسق الإسلامي. ووضع جناحه الايمن بقيادة الاميرال دوريا في مقابل (علوش باشا). وأسند قيادة جناحه الأيسر الى (بربريجو) وأسندت قيادة القلب إلى الاميرال القائد العام

(دون جوان) وترك اسطولاً احتياطياً بقيادة الاميرال (سانت كروز). وما ان بدأت المعركة حتى احاطت بوارج (سيروكو) العثماني بالجناح الايسر للاسطول الصليبي. واوغلت السفن الاسلامية بين بوارج الاسطول الصليبي. ودارت معركة قاسية أظهر فيها الطرفان عناداً كبيراً، غير أن المعركة انتهت بتدمير القسم الاكبر من الاسطول الاسلامي. وخسر المسلمون (٢٠) ألف مقاتل في حين لم تتجاوز خسائر الصليبيين (٨) آلاف قتيل. ودمر القسم الاكبر من الاسطول الاسلامي ونجح امير البحر الجزائري (علوش باشا) في إنقاذ الجناح الايسر وسفنه الأربعين، وعاد بها الى الجزائر. غير أن (دون جوان) لم يستثمر هذا النصر، بل انه لم يهاجم (ليبانتي) ذاتها. على الرغم من أن السكان النصارى، في الداخل، كانوا يترقبون ذلك للانقضاض على العثمانيين. وأخيراً انسحب الاحلاف، حتى إذا كانت السنة التالية، صار في مقدور السلطان أن يوجه إلى المعركة أسطولاً يكاد يضاهي اسطولهم منعة وقوة. وهكذا فت في عضد البنادقة الذين ظلوا مرابطين في دلماسيا دون أن يحسنوا مركزهم أو يعززوا قواهم، وزايلتهم الرغبة في مواصلة الصراع والنضال، فعقدوا مع العثمانيين معاهدة تنازلوا بموجبها عن قبرص (في آذار - مارس - ١٥٧٣) وافادت البحرية الاسلامية من تجربة (ليبانتي) فتم تطوير مدفعية الاسطول، حتى أصبحت منافسة فى عددها وقوتها للاساطيل المعادية[1].

---

(١) جاء في حرب الثلاثمائة سنة. احمد توفيق المدني ص ٣٩٨-٣٩٩ ما يلي: «كان الاسطول الصليبي يضم ٣٠٠ سفينة يقابلها ٢٥٠ سفينة لدى الاسطول الاسلامي. وكانت قوة الصليبيين (٨٠) ألف مقاتل. ووقعت المعركة يوم ١٧ جمادي الاول ٩٧٩ هـ وانتهت بغرق ٩٤ سفينة من سفن الاسطول الاسلامي وأخذ المسيحيون ١٣٠ سفينة عليها نحو (٣٠٠)مدفع و(٣٠)ألف اسير واستشهدفي المعركة عليباشا قائد الاسطول =

ب- الجهاد على الجبهة الاوروبية:

لم يلبث السلطان سليم الثاني أن توفي، وخلفه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م). وفي عهده قامت القوات العثمانية باعمالها الهجومية في بلاد القبق (القوقاز) وفتحت (تفليس) وأنشأت قلعة (قارص) في سنة ١٥٧٩. وعزز العثمانيون نفوذهم في جنوبي (الروسيا) ليتخذوا منها مركزاً لحملاتهم ضد بلاد الكرج سنة ١٥٨١ وسنة ١٥٨٣. وأصبح بامكانهم بعد ذلك التدخل في شؤون بولونيا حيث أصبح الملكان البولونيان اسطفان باثوري وسيجموند تابعين للسلطة العثمانية. وعلى الرغم من وقف القتال بهدنة سنة ١٥٨٣، فقد ظلت جمرات الحرب متقدة تحت الرماد، وظل شررها يتطاير بالنزاع المستمر على الحدود النمساوية، الى أن اشتعلت نيرانها بعد عشر سنوات، وكان حاكم (البوسنة) قد هزم هزيمة مروعة في حزيران -يونيو- سنة ١٥٩٣م أثناء اغارة قام بها على (سسك) في بلاد المجر. ولم يكن بد من استئناف الحرب الكبرى. ولكن السلطان مراد الثالث توفي وخلفه ابنه محمد الثالث(١٥٩٥-١٦٠٣م) الذي قاد بنفسه قوات ضد حكام النمسا (آل هبسبورغ) وانتصر عليهم في معركة (أكري). ولكن الحرب سارت بعد هذا النصر بخطى وئيدة جداً ثم استمرت

= العثماني. واستطاع (قلج علي) الذي تسميه المصادر الغربية (علوش) انقاذ اسطوله والاستيلاء على بعض السفن منها السفينة التي تحمل علم البابا. وبادر السلطان على اثر ذلك بتعيين (قلج علي) اميراً عاماً للبحر (قبوران باشا) مع بقائه والياً على الجزائر (باي لرباي). وتولى (قلج علي) مهمة اعادة تنظيم الاسطول، وترك (احمد العربي) حاكما للجزائر وهو الذي تسميه المصادر التركية (عرب احمد). ولم تمض اكثر من سنة واحدة، حتى استطاع (قلج علي) إعداد (٢٥٠) سفينة جديدة، وعاد الاسطول باقوى مما كان عليه قبل معركة (ليبانتي).

كذلك عقب وفاة محمد سنة (١٦٠٣) وارتقاء ابنه أحمد العرش (١٦٠٣-١٦١٧م) والواقع أن الحظ لم يجر في ركاب العثمانيين الا عندما انحاز الى جانبهم الزعيم المجري (بوكسكاي) بعد أن نصب أميراً على (ترانسلفانيا) وهكذا عقد الصلح آخر الأمر بين الفريقين بمعاهدة سيتفاتورك (سنة ١٦٠٦).

وشهدت اوروبا حالة من الهدوء النسبي، حتى عهد (السلطان ابراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨)، حيث استجمع العثمانيون قواتهم لمجابهة التحريض الذي لم تتوقف (البندقية) يوماً عن اثارته تحت لواء الصليبية، مع توجيه التهديد الى بحر ايجه من خلال سيطرة البندقية على جزيرة (كريت). وأدى ذلك الى اقدام السلطان ابراهيم على إصدار أمر في حزيران (يونيو) سنة **١٦٤٥** باعتقال جميع البنادقة في كل انحاء الامبراطورية ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، معلناً بذلك الحرب على البندقية .وقام الاسطول العثماني بمهاجمة جزيرة كريت، واحتلال (حانيه) بدون مقاومة. وفي هذه الاثناء كان البنادقة يسعون على غير طائل، في سبيل حمل الدول الاخرى على مساعدتهم للاحتفاظ بمواقعهم في المشرق. وامكن لهم احراز بعض التقدم في (دلماسيا). كما استطاعوا في سنة (١٦٥١) دحر الاسطول العثماني عند (باروس).

وفي هذه الفترة عرفت الامبراطورية العثمانية نوعاً من التنظيم الشامل (الذي تولى أمره الصدر الاعظم محمد كوبريلي). وساعد على اتخاذ المواقف الحازمة ضد جيران الامبراطورية في الشمال، ففي (ترانسلفانيا)[١] أقصى الباب العالي الامير (جورج راغوجكي) الذي

---

(١) ترانسلفانيا: (TRANSYLVANIE) وبالرومانية (ارديل: (ARDEAL) اقليم في رومانيا يقع بين جبال الكربات والالب الترانسلفانية .وكان هذا الاقليم تابعاً=

حاول التمرد على السلطة الاسلامية. واقام مكانه (الامير ميخال آبافي). ورفض الامبراطور النمساوي الاعتراف (بآبافي) بضغط من المجريين. فتهدده الباب العالي بالحرب. وهكذا بعثت في اوروبا فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العالم المسيحي كله العمل من أجل دفع الخطر الاسلامي، وهي الفكرة التي طالما عمل لها البنادقة. واستجاب الملوك لدعوة البابا ـبمن فيهم ملك فرنسا لويس الرابع عشرـ وذلك من اجل نصرة إخوانه في الدين، على الرغم من صلاته الطيبة بالباب العالي، فحمل الامراء الألمان الذين يؤلفون عصبة اتحاد الراين (آل هبسبورغ) وكانوا حلفاءه، على أن يضعوا (٢٠) ألف رجل تحت تصرف الامبراطور الالماني، فأحرجت هذه البادرة بلاط فيينا، الذي كان لا يزال يسعى لتجنب الحرب، ويأمل في مفاوضة العثمانيين. ولكن صبر السلطان ماعتم أن نفد، فأصدر أوامره بالهجوم على المجر في نيسان (ابريل) ١٦٦٣، حتى اذا انتهى العثمانيون الى أن يهددوا فيينا ذاتها، دعا الامبراطور اتحاد الراين، بل دعا السويد أيضاً، الى نجدته، غير أن ما تلقاه من دعم وما أحرزه من انتصارين ابرزهما انتصاره على نهر الراب (قرب جبل القديس غونارد) لم يمنعاه من متابعة جهده السياسي فعقد مع العثمانيين الصلح (سنة ١٦٦٥) حتى ينصرف لمناوأة السياسة الافرنسية. بذلك، أصبح باستطاعة القوات العثمانية القاء كل ثقلها في معركة (كريت). وكان البنادقة يتوقعون ـ بل ينتظرونـ وصول دعم من فرنسا، لكن هذه لم ترسل اكثر من بعض الضباط للالتحاق في خدمة البندقية، وعندما قرر لويس الرابع عشر ارسال حملة تضم (٧) آلاف رجل في صيف

=للملكة الهنغارية منذ القرن الحادي عشر. ثم حصل على نوع من الاستقلال (١٥٢٥-١٦٨٦) واصبح تابعاً لحكم آل هبسبورغ بعد ذلك.

سنة (١٦٦٩) كان الوقت قد أصبح متأخراً. إذ كانت قلعة (قلندية) قد سقطت في قبضة القوات العثمانية منذ يوم ٦ ايلول ـ سبتمبر ـ وعقدت معاهدة الصلح التي فرضت على البنادقة الانسحاب من كريت.

وعاد العثمانيون لبسط نفوذهم في الشمال الشرقي من بلادهم. وحدث في سنة (١٦٦٨) أن انضوى الزعيم القوقازي (دوروشنكو) تحت لواء العثمانيين (وكان يعمل من قبل لمصلحة التاج البولوني). ولكن الدولة العثمانية لم تطلب الى بولونيا التنازل عن (اوكرانيا) الا سنة (١٦٧٢) بعد أن وثقت من عدم تدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر، فلما كان شهر ايلول (سبتمبر) عقد ملك بولونيا (ميخال) معاهدة مع العثمانيين تنازل لهم بموجبها عن (بودوليا واوكرانيا) وذلك بعد أن فقد قلعة (قامنج) القائمة على الحدود، إثر حصار قصير الأمد. ولكن الماريشال (سوبيسكي)[1] نقض هذه المعاهدة في السنة التالية. فكتب له النصر على العثمانيين عند (خوتين) في ١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ وعندما توفي الملك ميخال بعد ذلك بقليل، ارتقى (سوبيسكي) عرش بولونيا باسم (حنا الثالث). غير أنه لم يوفق لاحراز أي نصر خلال حملاته التالية، حتى اذا ما حاول عبور نهر (الدنيستر) سنة ١٦٧٦، طوقت قواته عند (زوراونو)[2]

(١) سوبيسكي: (SOBISKI:JEANIII) ملك بولونيا (١٦٧٣-١٦٩٦) ويعتبر أحد الابطال الوطنيين لهذه البلاد، وهو من مواليد (اولسكو: OLESKO) (١٦٢٩-١٦٩٦) انتصر على الاتراك المسلمين، وانقذ فيينا من الحصار.

(٢) زوراونو: ZURAWNO مدينة اوكرانية (غاليسيا: GALICIE) تقع على نهر الدينيستر: DNIESTER. وهو نهر ينبع من جبال الكاربات في اوكرانيا، فيفصل بين مولدافيا (MOLDAVIE) واوكرانيا ويصب في البحر الاسود وطوله ١٢٠٠ كيلو متر.

فاضطر الى عقد الصلح في تشرين الاول ـاكتوبرـ تنازل بموجبه عن القسم الاعظم من (بودوليا واوكرانيا).

لم تكد القوات العثمانية تفرغ من صراعها مع بولونيا حتى اندلعت الحرب مع روسيا، ودارت معارك طاحنة انتهت باستيلاء الروس على كييف والمناطق المحيطة بها. واضطرت الامبراطورية العثمانية الى عقد صلح في سنة (١٦٨١) اعترفت فيه لروسيا بملكية ما استحوذته من المناطق. ولم يكد العثمانيون يطمئنون الى استتباب الأمن والسلام في الشرق، حتى حشدوا كامل قوتهم لحرب المجر من جديد. وكان النبلاء المجريون قد اقترحوا على السلطان العثماني اخضاع ما بقي من المجر تحت الحكم النمساوي، مقابل أدائهم جزية سنوية. فجهز السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ـ١٦٨٧م) جيشاً سار من بلغراد لقتال الامبراطور النمساوي في (ايار ـمايوـ ١٦٨٣) وكان الجيش النمساوي يتوقع الحصول على إمدادات جديدة، فتراجع متمهلاً الى (فيينا). وفي ١٧ تموز ـ يوليوـ حاصر العثمانيون العاصمة بقيادة الصدر الاعظم عمر مصطفى، ولكن جيشاً كبيراً ما لبث أن برز من ألمانيا، على الرغم من تهديدات الملك الافرنسي لويس الرابع عشر. ولقد استطاع هذا الجيش بالتعاون مع الفرق البولونية أن ينزل الهزيمة بالعثمانيين عند (قاهلنبرج) في ١٢ ـ ايلول ـ سبتمبرـ وأن يحملهم على رفع الحصار عن العاصمة. ومع أن الخلاف ما عتم أن شجر بين الالمان وملك بولونيا (سوبيسكي) بسبب من مطالب هذا الأخير، فقد وضعت الخطة الرامية لاخراج الاتراك المسلمين من المجر. وفي ٥ آذار ـ مارسـ سنة ١٦٨٤م، وبفضل تدخل البابا، عقد بين الامبراطور وسوبيسكي حلف انضمت اليه البندقية وهدفه العمل المشترك ضد العثمانيين. ومنيت القوات العثمانية على أثر ذلك بالهزيمة

تلو الهزيمة في المجر. ولم تلبث القوات الجرمانية أن ظهرت أمام أبواب (بودا) في سنة (١٦٨٦)ـ وضربت عليها الحصار. وبعد شهرين اثنين سقطت هذه المدينة، بعد أن بقيت طوال ١٤٥ سنة دعامة الحكم العثماني في المجر. ولم يؤد أحد من أعضاء التحالف الآخرين ما فرض عليه من مهام باستثناء أهل البندقية، ولكن انتصاراتهم اختتمت هي ايضاً باحتلال أثينا سنة ١٦٨٧، ليضطروا الى اخلائها في السنة التالية. وحاول البولونيون ان يستردوا (قامنج) طوال الفترة ما بين سنة ١٦٨٤ وسنة ١٦٨٧، غير ان محاولاتهم احبطت وفشلت. وفي سنة (١٦٨٧)ـ انضمت الروسيا الى التحالف للافادة من قوته في الاستيلاء على شبه جزيرة القرم. غير أن روسيا فشلت ايضاً في تحقيق هدفها.

أحرزت القوات الصليبية المتحالفة نصراً على العثمانيين في موهاج (موهاكس)[1] سنة (١٦٨٧م). وعلى اثر ذلك عقد مؤتمر للعلماء في (آيا صوفيا) وتقرر قرار خلع محمد الرابع وتعيين اخاه (سليمان الثاني ١٦٨٧ـ ١٦٩١ م). وعندما زحفت القوات النمساوية على (بلغراد) في ٦ ايلول- سبتمبر- ١٦٨٨ استطاعت الاستيلاء عليها، غير ان القوات العثمانية تمكنت من طردها منها في ٨ تشرين الاول- اكتوبر- (١٦٩٠ م). وفي السنة التالية قاد الصدر الاعظم بنفسه الجيش العثماني، وخاض معركة (سالانكمن) المشؤومة التي قتل فيها الصدر الاعظم (في ١٩ آب- أغسطس- ١٦٩١).

تولى عرش السلطنة العثمانية بعد فترة من الاضطراب

---

(١) موهاج: MOHACS (MOHATCH) مدينة هنغارية تقع على نهر الدانوب غير بعيدة عن الحدود اليوغوسلافية وفيها انتصر ملك هنغاريا لويس الثاني على الامبراطور العثماني سليمان الثاني سنة ١٥٢٦م. ثم انتصر فيها ايضا امير اللورين شارل على العثمانيين سنة ١٦٨٧.

السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) فقاد بنفسه الاعمال القتالية في المجر، وتمكن من انقاذ (طمشوار) [١] غير أنه اصطدم بقوات امير سافوي (الامير اوجين) [٢] الذي استطاع الانتصار على جيش السلطان عند زنطه -على نهر (تيس) في ١١ ايلول -سبتمبر (١٦٩٦م). وافاد القيصر بطرس من انشغال العثمانيين على جبهة الغرب فاستأنف الحرب سنة (١٦٩٥) وتمكن من فتح (آزوف) في سنة (١٦٩٦م). وتدخلت بريطانيا وهولاندا- بالوساطة- للصلح بين العثمانيين والروس. فتم عقد صلح (كارلو ويج) [٣] في ٢٦ كانون الثاني- يناير- سنة (١٦٩٩م). وارغم السلطان العثماني بموجب هذه المعاهدة على التخلي (لآل هبسبورغ) عن ترانسلفانيا حتى طمشوار، وعن المجر بكاملها تقريباً. وعن القسم الاعظم من (سلوفينيا) [٤]

---

(١) طمشوار: (TIMISHOARA) مدينة رومانية (في رومانيا) واسم هذه المدينة باللغة الرومانية: (TEMESVAR) تقع على نهر بيغا: BEGA.

(٢) الامير اوجين (EUGENE DE SA VOIE CARIGAN (PRINCE EUGENE قائد شهير في الجيش الامبراطوري النمساوي، وهو ابن اوجين موريس امير سافوا وكونت سواسون واولمب مانسيني. من مواليد باريس (١٦٦٣-١٧٣٦م). اشتهر بانه أحد القادة الكبار في عصره. خاض الحرب في البداية ضد الاتراك. ثم خاض حرب الوارثة الاسبانية مع القائد الانكليزي (مارلبورو). وربطت بين القائدين اواصر الصداقة، وتمكنا بالتعاون احراز عدد من الانتصارات في اودينارد ومالبلاكية. ولكن القائد الافرنسي فيلار هزمه في معركة (دينان).

(٣) كارلوويج: (CARLOWITZ) الاسم القديم لمدينة (كارلوفسي: CARLOVCI) وهي مدينة يوغوسلافية تقع على نهر الدانوب. وفيها وقعت معاهدة سنة (١٦٩٩م) بين تركيا والنمسا وبولونيا وروسيا والبندقية- فينيسيا- وبها ارغمت تركيا العثمانية على التخلي عن قسم كبير من ممتلكاتها الاوروبية.

(٤) سلوفيينا: (SLOVENIE) احدى الجمهوريات الاتحادية في يوغوسلافيا حالياً، ومساحتها (١٦,٢٢٩) كيلو متر مربع، وعاصمتها (الجوبلجانا: LJUBLJANA).

وكراوتيا. كما أرغم على التنازل للبولونيين عن (قامنج) وجميع ما فتحوه في (بودوليا) وعن اوكرانيا أيضاً. كما تنازل للبنادقة عن المورة وعدد من المدن في دلماسيا. وبالتنازل عن (آزوف) للروس، فتحت ابواب البحر الأسود أمام القيصر، بعد أن بقي هذا البحر لعهود طويلة بحيرة عثمانية.

كان ملك السويد (شارل الثانـي عشر)[1] قد أصبح الآن خصماً عنيداً لروسيا، فعمل الباب العالي على التقرب منه، غير أن ملك السويد هزم هزيمة شنعاء عند اصطدامه بالقوات الروسية في معركة (بلتاوا ـ بلتافا)[2] فاسبغ السلطان العثماني عليه حمايته في قلعة (بندر) العثمانية. ولكن الباب العالي لم يشرع في الاستعداد لمحاربة قيصر روسيا الا في أواخر سنة (١٧١٠م) بعد أن عجز عن الاتفاق معه على عودة (شارل) الى بلاده. وهكذا اضطر بطرس الى ايقاف عملياته الحربية في مقاطعة البلطيق، ويعود أدراجه في اتجاه الجنوب. وكاد يقع في الواقع هو وجيشه بكامله في قبضة الجيش العثمانـي (على نهر البروت) وقدم بطرس غرامة كبيرة حتى سمح له بالتراجع في تموز

---

(١) شارل الثانـي عشر: (CHARLES XII) ابن شارل الحادي عشر، ولد في استوكهولم (١٦٨٢ـ ١٧١٨). وما ان تسلم ملك بلاده حتى عمل على توسيع حدودها، فانتصر على ملك الدانمرك في سنة (١٧٠٠ م) وانتصر على الروس في نارفا: (NARVA) وعلى ملك بولونيا (اوغست الثانـي) في معركة كيسو (KISSOW)(سنة: ١٧٠٣) وقاد بعد ذلك جيوشه ضد بطرس الكبير ملك الروسيا. غير ان روسيا الحقت به الهزيمة في معركة بلتافا سنة ١٧٠٩ م، فالتجأ الى تركيا (السلطان احمد الثالث) الذي دعمه فعاد الى السويد سنة ١٧١٥. واستمر الصراع حتى قتل اثناء حصار هالدن» آزوف (FREDRIKSHALD) HALDEN

(٢) بلتافا: (PULTAVA)POLTAVA مدينة اوكرانية (في الاتحاد السوفييتي حالياً) الى الغرب من خاركوف.

-يوليو- سنة ١٧١١م. واضطر الى اخلاء (آزوف)[١] واعادتها الى العثمانيين. مع التزامه بدك حصون طيغان (تاغانروغ)[٢] وازالتها من الوجود. ولقد وافق الباب العالي على هذه المعاهدة من اجل التفرغ لاستعادة ما فقده من مقاطعات فرضتها عليه معاهدة (كارلوويج). وفي سنة (١٧١٤ م) أفاد الباب العالي من الثورة التي نشبت في الجبل الاسود فاعلن الحرب على (البندقية) ولم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى اضاعت البندقية كل ممتلكاتها في (المورة) وجزر الارخبيل. وعاد الامبراطور النمساوي للتدخل في الحرب. واحرز الامير اوجين نصراً على القوات العثمانية في بتروارادين - أو وارادين) في ٤ آب - أغسطس - سنة ١٧١٦. ولم يلبث أن فتح (طمشوار) في تشرين الاول- اكتوبر- وهي آخر الحصون العثمانية في الأرض الهنغارية، ليستولي في السنة التالية على (بلغراد) ذاتها. ولكن السياسة الاسبانية في ايطاليا ما عتمت ان اعترضت سبيله الظافر. فاضطر الامبراطور النمساوي الى قبول عروض الصلح العثمانية، وفي المعاهدة المعقودة في بازارو ويج يوم ٢١ تموز- يوليو- سنة ١٧١٨، تنازل الباب العالي للامبراطور عن بلغراد وعن كامل منطقتها الى مصب نهر الآلوته في الطونة (الدانوب) في حين كان على البنادقة أن يتخلوا عن المورة.

كانت روسيا قد اخذت في توسيع حدودها عبر (بلاد الافغان) و(فارس- ايران) وأدى ذلك الى الصدام مع الامبراطورية العثمانية في مرات عديدة. وعند وفاة بطرس الكبير، تولت زوجته (حنه -أو

---

(١) آزوف: AZOV -أو- AZOF) خليج يشكله البحر الأسود، ويطلق عليه ايضاً اسم (زاباخ: ZABACHE) ويصب فيه نهر الدون، ويتوغل هذا الخليج في حدود روسيا الجنوبية حالياً.

(٢) تاغانروغ: (TAGANROG) مدينة روسية حالياً. تقع على بحر ازوف.

كاترين)[1] عرش الامبراطورية الروسية. فوطدت العزم على مواصلة التقدم نحو البحر الاسود وبحر قزوين متبعة في ذلك سياسة زوجها. غير أن الدول البحرية ـانكلترا خاصةـ حالت دون هجوم روسيا على الامبراطورية العثمانية، لأن مصالح تلك الدول تعارضت مع حصول روسيا على توسع جديد. حتى اذا انقضت الاضطرابات البولونية، هاجم الروس العثمانيين في تشرين الاول ـاكتوبرـ سنة ١٧٣٥م. ولكنهم لم ينتهوا باديء الأمر الى ابعد من (آزوف). وحاول الامبراطور الالماني الذي كان مقيداً بمعاهدة تفرض عليه مساعدة روسيا، أن يتوسط في البداية بين الطرفين المتصارعين، فلم يشارك في القتال الا في سنة (١٧٣٧م). ولكن جيوشه منيت بالهزيمة تلو الهزيمة، حتى اذا كانت سنة (١٧٣٩م)، أسلمت (بلغراد) الى العثمانيين بعد فترة قصيرة من الحصار. وعقدت بعد ذلك مباشرةمعاهدة تنازل فيها الامبراطور النمساوي عن كل المغانم التي ضمنتها له معاهدة صلح (بازاروويج). ومن ثم اضطرت (روسيا) أن توقع معاهدة مع الامبراطورية العثمانية، غنمت بواسطتها مدينة (آزوف) التي كانت مدمرة تدميّراً تاماً. وفي سنة (١٧٤٠م) جدد الباب العالي اعترافه بالحماية الافرنسية على نصارى الشرق ـمن الكاثوليكيينـ مقابل تأييد فرنسا الديبلوماسي له في هذه الحرب. وكانت هذه هي الثغرة التي اتاحت بعد ذلك الفرصة لكل الدول لبسط حمايتها على المشرق الاسلامي بحجة حماية رعايا النصارى من المذاهب المختلفة.

كانت اوروبا خلال هذه الفترة تعيش فترة تشكلها الوطني

---

(١) حنه ـأو ـ كاترين: CATHERINE I) امبراطورة روسيا (١٦٧٢-١٧٢٧) زوجة بطرس الكبير (PIERRE LE GRAND) تولت الحكم بعد موت زوجها (سنة ١٧٢٥) غير أنها لم تستمر في الحكم اكثر من سنتين.

والقومي ، فوقعت مجموعة من الحروب بين الدول الاوروبية بعضها ضد بعض، وظهر في تلك الفترة بصورة خاصة امبراطور روسيا (بطرس الكبير) في روسيا و(فريدريك الكبير) [1] في بروسيا الذي خاض حروبه ضد النمسا، ونظراً لأن الامبراطورية النمساوية كانت تتزعم الدول الكاثوليكية في حربها الصليبية ضد المسلمين، ونظراً أيضاً لأن بروسيا كانت تعتبر نفسها (حامية البروتستانتية) فقد حاول فريدريك التحالف مع الامبراطورية العثمانية ضد العدو المشترك (النمسا)، واقناع الباب العالي بشن حرب على النمسا أثناء حرب السبع سنوات (المرحلة الثالثة من الحروب السيليزية). وامكن عقد معاهدة صداقة بين (بروسيا والامبراطورية العثمانية) في ٢٩ آذار ـ مارس ـ سنة ١٧٦١.غير ان السلطان رفض الاشتراك في هذه الحرب التي لم يكن له مصلحة فيها، والتي افتى العلماء بعدم تأييدها انطلاقاً من قاعدة (عدم الانتصار لكافر ضد كافر ـ طالما انه لا مصلحة للمسلمين فيها).

ان تجنب الامبراطورية العثمانية الاشتراك في الحروب الاوروبية ، لم يكن ليمنعها من المشاركة في صنع احداث السياسة الاوروبية، بسبب نشوء المسألة البولونية والتي اصطنعتها روسيا لضمان مطامعها في التوسع نحو اوروبا. وبرزت المسألة البولونية

---

(١) فريدريك الثاني ـ الكبير: (FREDERIC II LE GRAND) ابن فريدريك الاول. وملك بروسيا ـ ولد في برلين (١٧١٢-١٧٨٦م) تم تتويجه على اثر وفاة ابيه (سنة ١٧٤٠م) اشتهر بأنه قائد عسكري كبير، واداري منظم من الطراز الأول واليه يعود الفضل في اظهار عظمة بروسيا. استولى على سيليزيا إثر انتصاره في معركة (مولويتز ـ سنة ١٧٤١م) وتحالف مع انكلترا، وقاوم الدول المتحالفة ضده (النمسا وفرنسا وروسيا) طوال حرب السبع سنوات وانتصر في معارك روزباك ولوتن وزورندورف. واشترك في اقتسام بولونيا سنة ١٧٧٢ وحصل على نصيبه منها. كان صديق الكاتب الافرنسي فولتير. واشتهر برعايته للادباء والفنانين والعلماء.

بصورة خاصة في عهد الامبراطورة (كاترين الثانية)[1] حيث حاولت هذه الامبراطورة اضعاف بولونيا، وأظهرت الامبراطورية العثمانية عدم اهتمام كبير في بداية الأمر، على الرغم من إقدام روسيا على مساعدة الكرج للقيام بالثورة ضد العثمانيين المسلمين، وعلى الرغم ايضاً من قيام روسيا بخلق المتاعب والمشكلات في وجه حاكم القرم (خان التتار). وأثناء ذلك بذل حزب الإئتلاف البولوني كل جهوده حتى نجح في اقناع السلطان بضرورة الدفاع عن نفوذه في الشمال الشرقي من بلاده. حتى اذا ما قامت القوات الروسية بتدمير مدينة (يالطة) على حدود (بسارابيا)[2] سارع المفتي الى الافتاء بضرورة شن الحرب ضد (روسيا) على الرغم من تعلقه وزملائه رجال الافتاء بأهداب السلام.

بدأت روسيا عملياتها ضد التتار في القرم والذين تولى قيادتهم خان القرم (كراي). واستطاعت القوات الروسية أن تلحق بهم الهزيمة، ثم استولت على (خوتين) بينما كان الجيش العثماني مرابطاً في (دوبريجة). وفي سنة (١٧٧٠م) تابعت القوات الروسية تقدمها عبر

---

(١) كاترين الثانية الكبيرة: (LA GRANDE CATHERINE II) امبراطورة روسيا، ولدت في (ستيتن: STETTIN) أو بالالمانيه (SZCZECIN) المدينة البولونية الواقعة على نهر الاودر، وهي ابنة الدوق (أنهالت - زربست) عاشت في الفترة (١٧٢٩-١٧٩٦م) تزوجت بطرس الثالث. وحكمت وحدها بعد موت زوجها في سنة (١٧٦٢م) اشتهرت بحروبها ضد المسلمين الاتراك بصورة خاصة، وقامت باصلاحات كثيرة، وعملت على حماية ورعاية العلماء والادباء والفنانين - والافرنسيين منهم بصورة خاصة - فعمل هؤلاء على اسدال ستار على شذوذها وقسوتها.

(٢) بسارابيا: (BESSARABIE) بلاد في اوروبا الشرقية، تقع بين نهر الدنيستر ونهر بروت PRUT . ولم تخضع هذه البلاد ابداً لرومانيا، وهي تتبع حالياً، بعد تقسيمها، الى (اوكرانيا) و(مولدافيا).

(البغدان والافلاق) الى أن وصلت نهر الدانوب (الطوانه) واحتلت كيليا وبندر وابرائيل، بعد أن أخذت من النبلاء الرومانيين يمين الولاء للامبراطورة الروسية (كاترينا) وفي هذه الاثناء ظهر في بحر ـ ايجة ـ لأول مرة ـ اسطول روسي عهد اليه مهمة اشعال الثورة في اليونان ودعم الثوار ضد العثمانيين.

وهكذا احتل القرصان الايجيون عدداً من المواقع الحصينة في المورة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها. وقام الروس بعد ذلك باضرام النار في الاسطول العثماني (في خليج جشمة) وذلك في شهر تموز يوليو ـ (١٧٧٠م). غير ان الروس لم يستغلوا انتصارهم هذا. فكان اثر هذا العمل العدواني المباغت محدوداً. وقامت القوات الروسية بهجوم جديد في سنة (١٧٧١م) فأمكن لها تحقيق نصر كبير باستيلائها على (برقوب) واخضاع شبه جزيرة القرم. وقامت (بروسيا والنمسا) بالوساطة وتم عقد هدنة بين الطرفين تنازل السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٣م) عن جميع مطالبه في بولونيا. غير انه لم يتم الاتفاق بين الطرفين بشأن موضوع الحصون القائمة على البحر الاسود. وأعاد العثمانيون في هذه الفترة تنظيم قواتهم، وأمكن لهم صد القوات الروسية في البلقان. وأرغموا الروس على رفع الحصار عن (سلسترة) و(فارنا) والانسحاب في أواخر سنة ١٧٧٣ عبر الدانوب. ثم توفي السلطان مصطفى عندما كان يعتزم قيادة الجيش بنفسه لتدمير جيش روسيا. وخلفه اخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٣ـ١٧٨٩). فوجه القوات بقيادة الصدر الاعظم (محسن زاده) الذي وقع في كمين نصبه له الروس عند (شملا) وفرقوا جيشه، فاضطر الى طلب الهدنة. وتم التوقيع على معاهدة للصلح بين الفريقين في (كوجلك قينارجه ـ جنوبي سلسترة) بتاريخ ٢٢ تموز ـ يوليو ـ ١٧٧٤م.

فرضت هذه المعاهده على السلطان العثماني التنازل لروسيا عن أعظم القلاع شأناً على البحر الأسود، كما تخلى لروسيا عن (قبرطة ـ أو قبرطاي) الكبرى والصغرى في بلاد القوقاز (القبق). ومنح الاسطول الروسي حق المرور في الدردنيل، ليس ذلك فحسب، بل لقد اكره فوق ذلك على الاعتراف باستقلال التتار في شبه جزيرة القرم. وعلى منح العفو العام وحرية العبادة لسكان البغدان والافلاق. وتدهورت بنتيجة ذلك هيبة الاتراك المسلمين في اوروبا بحيث ظهر أن اخراجهم من اوروبا لم يعد باكثر من قضية وقت. ووجدت النمسا في ذلك فرصة سانحة، فعملت على سلخ (بوقووينة ـ أو ـ بوكوفينا) وضمتها اليها بعد عقد الصلح مباشرة، متذرعة بحجة واهية، فلم يستطع السلطان لها دفعاً. وفي سنة (١٧٨٣م) أخضعت كاترينا التتار، فقضت بذلك نهائياً على استقلال شبه جزيرة القرم. ثم ان السلطان اكره على ذلك ايضاً في معاهدة (آيينه لوقواق) سنة (١٧٨٤م).

سنحت الفرصة للقوات العثمانية بعد ذلك للتعويض عما فقدته في حربها مع روسيا وذلك عندما قام اهل القوقاز (القبق) بالثورة على امير الكرج (هرقل) الذي كان يحكم بحماية الامبراطورة كاترين. وحاولت القوات العثمانية استرجاع شبه جزيرة القرم. غير أن القائد الروسي (سوفوروف) [1] احبط هذه المحاولة، ثم لم يلبث أن استولى على اجاقوف في كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٧٨٨. بعد أن تم تحطيم الاسطول العثماني في الصيف المنصرم على شواطىء القرم.

---

(١) سوفوروف: (ALEXANDRE SOUVOROV) جنرال روسي من مواليد موسكو (١٧٢٩ـ١٨٠٠) من ابرز اعماله القيادية انقضاء على ثورة بولونيا، في سنة ١٧٩٤ وخوض الحروب ضد الاتراك العثمانيين والقضاء على جيوش الثورة الفرنسية في ايطاليا.

وفي شهر شباط ـ فبراير ـ من السنة ذاتها أعلن امبراطور النمسا (جوزيف الثاني) الحرب على العثمانيين، وتقدمت جيوشه في الصرب وترانسلفانيا. وتدخلت من جديد (بروسيا) والدول البحرية للوساطة، وتم عقد صلح (زشتوى) في ٤ آب أغسطس سنة ١٧٩١، وبموجبه احتفظت الامبراطورية العثمانية بإمارات الدانوب حتى (أرسورة). وتابعت روسيا الحرب بضراوة في بسارابيا والقرم والدانوب، ثم وقعت صلحاً مع الامبراطورية العثمانية (عند ياش) في ٩ كانون الثاني ـ يناير ـ سنة (١٧٩٢ م) وقضى هذا الصلح بجعل نهر الدنيستر هو الحد الفاصل بين الدولتين، وتنازل الاتراك لروسيا عن شبه جزيرة القرم بصورة نهائية.

كان ذلك عرضاً سريعاً للصراع المرير الذي خاضته الامبراطورية العثمانية ضد اعداء الخارج. وكانت مرغمة على خوض مجموعة من الصراعات الداخلية ايضاً، كان من ابرزها الصراع مع المتمردين من قادة الجيوش (الانكشارية) ومع الشيعة في (فارس) ومع المتمردين في سوريا ولبنان. ولم تكن اعمال هذا التمرد وتلك الثورات بعيدة عن التحريض الخارجي وهو ما تبرزه بصورة خاصة (ثورة جنبلاط) في الشام وثورة (فخر الدين المعني) في جبل لبنان[1]. ونظراً لارتباط هذه الاحداث بما كان يحدث على جبهة المغرب الغربي الاسلامي والمشرق العربي الاسلامي فقد يكون من المناسب التوقف عندها قليلاً.

---

(١) تم الاعتماد في البحث هنا على ما ورد في (تاريخ الشعوب الاسلامية) كارل بروكلمان دار العلم للملايين ص ٥١١ و٥١٣ و٥١٤.

ج- تمرد جنبلاط وثورة المعني:

كان (جان بولاط - أو جانبولاط) حاكماً على (كلس) قرب مدينة حلب، حكماً وراثياً من قبل الاتراك العثمانيين، وفي سنة (١٦٠٣م) قامت حامية (تبريز) بالتمرد على الحكم العثماني، وظن (جان بولاط) في نفسه القوة، فأعلن الثورة بدوره، وانضم اليه ابناء عشيرته الاكراد. وكانت الدولة مشغولة بقتال المجر. وعندما انتهت معركة (بودا) بانتصار العثمانيين، بات باستطاعتهم التحول لقمع الثورات. وأمكن القضاء على ثورة (جان بولاط). فما كان من هذا الا أن فر ليحتمي بأخطر الزعماء الثائرين في آسية الصغرى وهو (الأمير الدرزي فخر الدين المعني) الذي كان قد اعلن الثورة في جبل لبنان بالتنسيق والتعاون مع (جان بولاط).

ولم تتمكن الدولة العثمانية من التعرض له بسبب انصرافها الى حروبها الخارجية - حتى بعد هزيمة جان بولاط - بل تركت إليه حكم البلاد الواقعة في حوزته، لقاء جزية سنوية يدفعها لبيت مال المسلمين. وما لبث (فرديناند الأول) [1] الذي غمرت نفسه روح المغامرة، أن اتصل به ابتغاء فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا، في حين كان فخر الدين يرغب في الاستعانه بفرديناند وبالبابا وباسبانية ايضاً على فتح فلسطين، ثم ان فخر الدين استولى على بعلبك سنة (١٦١٠م) وهدد دمشق ذاتها بالاحتلال. ولكن اسطولاً تركياً اسلامياً ما لبث أن ظهر على الشاطىء سنة (١٦١٣) فاضطر الامير فخر الدين إلى الفرار الى (ليفورنو). وكان (كوزموس الاول- ابن فرديناند) قد

---

(١) فرديناند الأول: FERDINAND. I. GRAND DUC DE TOSCANE استمر حكمه لدوقية توسكانيا خمس سنوات (١٦٠٤-١٦٠٩م).

تولى مقاليد الحكم في (توسكانيا) فتقدم اليه (فخر الدين) وعرض عليه تجريد حملة صليبية جديدة، غير أن كوزموس كان أعقل من أن يفكر في مثل ذلك.

وقضى فخر الدين خمس سنوات في البندقية (فلورنسا) استطاعت خلالها أمه (نَسَبْ) أن تدافع عن بلاده باسم حفيدها (أحمد علي) ضد والي دمشق. حتى اذا رجع (فخر الدين) من ايطاليا. اضطر الى الاعتراف بابنه أميراً على البلاد. ولكنه قاد بالنيابة عن ابنه الحرب ضد العثمانيين. وأفاد من انصراف العثمانيين لقتال الشيعة في بلاد فارس (ايران) فعمل على بسط نفوذه على الساحل الشامي حتى انطاكية. وفي سنة (١٦٣١م) نشأ بينه وبين الباب العالي نزاع بسبب من رفضه السماح لجيش من جيوش السلطان، حشد لحرب الفرس، أن يقضي فصل الشتاء في البلاد التي يحكمها، وطرده لهذا الجيش بقوة السلاح. وبعد سنتين اثنتين، وجهت الدولة رداً على هذا النقض لاحكام السلم، اسطولاً آخر الى الساحل الشامي فاحتل المرافىء جميعاً، في حين هاجم الولاة المسلمون (الدروز) في البر، وفي ١٥ تشرين الاول - اكتوبر - استدرج علي بن فخر الدين، الى خوض معركة فاصلة دارت رحاها في السهول، فهزم هزيمة شنعاء ولقي حتفه هو وعمه. وهكذا اضطر (فخر الدين) الى أن يستسلم في مفزعه الاخير في ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - فحمل الى استانبول، حيث حز رأسه في ١٣ نيسان - ابريل - سنة (١٦٣٥م) بعد أن قام ابن اخيه (ملحم) بمحاولة فاشلة للثأر لشرف اسرته عن طريق الثورة المسلحة.

كانت الدول الغربية تتابع باهتمام كبير ثورة (جان بولاط) و(فخر الدين المعنى) فبدأت الاتصال بالدروز والموارنة. وعندما احتل ابراهيم باشا فيما بعد (سنة ١٨٣١) بلاد الشام، قام الموارنة بدور

كبير، حيث تلقوا الأسلحة من الحلفاء لمحاربة الحكم المصري . وأبرز ذلك ظهور أسر التنوخيين والمعنيين والشهابيين. وبدأت فرنسا بممارسة دور فعلي في احداث الشرق الاسلامي من خلال ما زعمته حقاً لها في حماية (نصارى الشرق) ـ والموارنة منهم بصورة خاصة في حين أخذت روسيا منافسة فرنسا في هذا المجال من خلال الزعم بحقها في حماية رعاياها من ابناء الكنيسة الارثوذكسية. ولم تقف انكلترا مكتوفة الايدي ، فبسطت حمايتها على الدروز، وأدى ذلك الى تنافس هذه الطوائف واستفحال أمرها ، مما أدى فيها بعد الى حدوث صدامات دموية (اشهرها مذابح سنة ١٨٦٠) وبروز المسألة الشرقية .

٣ـ الموقف على جبهة الاندلس

سقطت مملكة غرناطة تحت حكم (فرديناند وايزابيللا) سنة ١٤٩٢، غير انه كان من المحال القضاء على الوجود الاسلامي في الاندلس دفعة واحدة. وفي الوقت ذاته أدت الحرب المنظمة ضد المسلمين الى تعرض اسبانيا لأزمة حادة في ادارتها، والى اضطراب في امورها المالية حتى اشرفت على الافلاس. فالتفتت الى الفتوح، وظنت أن نهب العالم الجديد سيضمن لها الموارد الكافية، غير أن القرصنة الاسلامية من جهة والمنافسة مع الدول الغربية من جهة ثانية حرمتا اسبانيا من هذه الموارد. وزاد موقف اسبانيا سوءاً بسبب المظالم وحكم الارهاب وارتكاب الفظائع ضد المسلمين ـ تحت ادارة محاكم التفتيش ـ وبادارة الملك الاسباني فيليب الثاني (١٥٢٧ـ ١٥٩٨ م) الذي ورث عن ابيه (شارل الخامس ـ شارلكان) كل الحقد والكراهية ضد المسلمين، فجمع في شخصه كل الصفات السيئة كالظلم والشراسة وفساد الاخلاق، حتى استوجب وصف احد المؤرخين له: «قليل من الرجال الذين عرفهم التاريخ، قد استطاعوا بجهودهم الخاصة، أن يأتوا بمثل هذا المقدار الضخم من الشر الذي جاء به هذا الملك... واذا كانت هناك عيوب قد برىء منها، فسبب ذلك هو أنه غير مسموح للطبيعة الانسانية بأن تبلغ الكمال، حتى في الشر»[1].

---

(١) حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٣٩٢.

وكان من الطبيعي أن تتعاظم النقمة في نفوس المسلمين الذين لجؤوا الى جنوب الاندلس، سواء منهم من حافظ على دينه ، أو من أعلن تنصره ظاهرياً بسبب عجزه عن احتمال الضغوط. وأن يؤدي ذلك الى استعداد هؤلاء للثورة على الحكم الاسباني. واتصل هؤلاء بوالي الجزائر (قلج علي- أو علج علي) يطلبون اليه دعمهم وامدادهم. واعلموه أنهم قرروا اعلان الثورة في الفاتح من تشرين الثاني- نوفمبر- المصادف لعيد (جميع القديسين) (١٥٦٨م) ولم يكن باستطاعة (قلج علي) تجاهل صرخة استغاثة المسلمين الاندلسيين. فحشد في الجزائر جيشاً يضم (١٤) ألف مقاتل من المشاة - رماة البنادق - بالاضافة الى (٦٠) ألفاً من ابناء المغرب الاسلامي المجاهدين في سبيل الله... وأرسل بهم الى مدينتي (مستغانم ومازغران) استعداداً للاغارة على وهران، ثم الانزال في الموانىء الاندلسية. وأرسل مع الرجال المذكورين عدداً كبيراً من المدافع، مع (١٤٠٠) بعير محملة بالبارود. ويوم الاربعاء، المتفق عليه، أي يوم عيد جميع القديسين، كانت أربعون سفينة من الاسطول الجزائري تقف أمام مرسى (المرية) الاندلسي لدعم الثورة ساعة اندلاعها. غير أن العملية أخفقت يومئذ بسوء تصرف أحد رجال الثورة، مما أدى الى اكتشاف أمره، فداهمه الاسبان. وضبطوا ما كان يخفيه في منزله من السلاح. واطلعوا على مخطط الثورة، فلم تقع في اليوم المعين، وضاعت بذلك فرصة المبادأة. ولكن الثورة لم تلبث أن تفجرت بعد ذلك، ويصف (مؤرخ عربي[1] نقلاً عن المصادر الاندلسية ما حدث خلال هذه الفترة بالتالي:

لما صار الأمر الى فيليب الثاني، شدد في انفاذ الأوامر بحق

---

(١) حاضر العالم الاسلامي (الامير شكيب ارسلان) ٢/١٥-١٦.

الموريسك ـ المسلمين ـ وسنة ١٥٦٧، عزز الأمر الصادر بهذا الشأن والمتعلق بتغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة ـ الطهارة ـ التي هي من سنن الاسلام ـ حيث كان من عادة الشعوب اللاتينية التقزز من الطهارة والاستحمام وكانوا ينفرون من المسلم بقولهم (الذي يدخل الحمام) وكان الاسبانيون يهدمون الحمامات بالحماسة التي يهدمون بها المساجد ـ وانطلق جند فيليب لهدم الحمامات. وكانت الاساليب التي اتبعت للقضاء على تلك الامة البائسة، أكبر من أن يحتملها أي انسان، فكيف الأمر بالنسبة لأحفاد المنصور وعبد الرحمن وأبناء سراج، ولذلك لم يطل الأمر حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار (فرج بن فرج من نسل بني سراج) ومعه جماعة من ذوي الحمية من غرناطة، وقصدوا الجبال قبل أن تتمكن الحامية ـ الاسبانية ـ من مطاردتهم، ونودي (بهرناندو ـ دوفلور) من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على الاندلس تحت اسم (محمد بن أمية) وعمت الثورة في اسبوع واحد جميع جبال البشرات. ووقع ذلك في سنة ـ ١٥٦٨م ـ. ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الأرض مرتقى، واوعرها مسلكاً، كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين، حافلاً تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال، وذلك من الجانبين لا من جانب واحد، لكنه حافل أيضاً بوقائع يندر في تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بمثلها، وتبقى على صفحات السير فخراً للقرون والامم.

وكان المغاربة هناك في موطنهم الأخير، والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها في البلاء العظيم، والهون الذي ليس له نظير، فهبوا جميعاً منادين بأخذ الثار، واقتضاء الاوتار،

قرية بعد قرية، وهدموا الكنائس، وأهانوا ما فيها، وفتكوا بالقسس، وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج. ودافعوا دفاعاً شديداً. وكان المركيز (مونتيجارة) قائداً في غرناطة فعمد الى المسالمة، وأخذ بالملاينة، وكادت الوقدة تنطفئ لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس البيازين- ضاحية غرناطة- قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركيز، لكن الموريسك -المسلمين- لم يقبلوا العذر، ونشروا لواء الثورة. وصار (ابن امية) أميراً بالفعل على جميع جهات (البشرات) الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة، فقام بعض أعوانه وقتلوه، وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة (اسمه عبد الله بن أبوه). فأرسلت دولة اسبانية الدون (جون الاوستري) أخا الملك -وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر- بمهمة القضاء على الثوار. فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى سنة ١٥٧٠وأتى من الفظائع ما بخلت بأنداده كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن، ودمر البلاد، وكان شعاره (لا هوادة). وانتهى الأمر باذعان الموريسك. لكنه لم يطل، واستأنف (مولاي عبد الله بن أبوه) الكرة، فاحتال الاسبان حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة.

وأفحش الاسبانيون في قمع الثورة، بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان، حتى أهلكوا من بقية العرب خلقاً كثيراً، وخنع الذين نجوا من الموت، لكنهم وقعوا في الرق، وسيقوا مماليك وعبدانا، ونفي منهم جملة، فأخذ عددهم يتناقص، ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ، وهو عيد جميع القديسين سنة (١٥٧٠م) بلغ عدد من ذهب منهم عشرون ألفاً، والذين أخذوا منهم في معمعة

الفتنة صاروا الى الاستعباد. واخرج الباقون من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً. ومنهم من أجاز الى (بر العدوة) في المغرب. وطافوا هناك سائلين ـ متسولين ـ لأجل قوتهم الضروري. ومنهم من لجأ الى البلاد الافرنسية، حيث استقبلوهم براً وترحيبا، واحتاج اليهم هنري الرابع لأجل دسائسه في مملكة اسبانيا. والحقيقة أن (هنري الرابع) أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا الى كاثوليكيين. وقد نفذ الأمر، وارغموا على التنصر، وبقي الأمر على ذلك حتى بلغ السلطان العثماني، فأرسل الى (هنري الرابع) يطلب اليه اخراجهم الى بلاد الاسلام، فخرج اكثرهم. وبقي من اختار الاقامة بفرنسا مع النصرانية. ولما ظهر مذهب (البروتستانت) وكان منهم من اختار هذا المذهب، أصدر لويس الرابع عشر أمره بطرد البروتستانت، فهاجر قسم من هؤلاء الى سويسرا. وبينهم العالم الشهير (أبو زيد) الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن، وكان صديقاً لفولتير وروسو ونيوتن ولايبنتز. وكان فولتير يقول عنه (صديقنا العربي). وطالما كان فولتير يستفتيه في عويص المسائل، كما كانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعت في كتاب.

المهم في الأمر، هو أن الاسبانيين لم يتمكنوا من اخراج المسلمين دفعة واحدة. ولم ينته اخراجهم الا في سنة (١٦١٠م) حيث وقع الجلاء الأخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرون. ويقال أن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وأن الذين خرجوا لآخر مرة يبلغ نصف مليون. وأما الاسبانيون المساكين، فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا

يخربون بيوتهم بأيديهم، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين كانت بهم اسبانيا مركزاً للمدنية، ومبعثاً لأشعة العلم طوال قرون عديدة. وقلما استفادت بقعة اوروبية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد. فلما غادرها الاسلام، انكسفت شمسها وتسلط نحسها، وان فضل مسلمي الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة، وسقوط هذه الأمة في مكانتها الاجتماعية بعد أن خلت ديارها من الاسـلام.

يمكن بعد ذلك العودة الى دور الجزائر الفتية في دعم هذه الثورة، ففي شهر كانون الثانـي- يناير - من سنة(١٥٦٩م)أرسل والي الجزائر (كلج علي) الاسطول الجزائري لدعم الثائرين، وحاول هذا الاسطول احباط عملية الانزال. وبلغت الثورة عنفوانها، عندما وصلت زوابع الشتاء أوج قوتها في البحر، ولكن ذلك لم يمنع المجاهدين في البحر من بذل كل الجهود لمقاومة الأعاصير من أجل الوصول الى أماكن اخرى على الساحل لانزال الامداد والدعم. غير أن الزوابع والأعاصير أغرقت (٣٢) سفينة جزائرية كانت تحمل الرجال والسلاح. ولم تتمكن الا ست سفن فقط من انزال شحنتها فوق سواحل الاندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمتطوعون الجزائريون. ولم يأبه والي الجزائر (كلج علي) لهذه الكارثة فصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الاندلس، وتمكن من انزال أربعة آلاف من مجاهدي الجزائر، خلال شهر تشرين الاول -اكتوبر- من سنة (١٥٧٠م) من رماة البنادق النارية، مع كمية كبيرة من الذخائر، علاوة على بعض قدماء المجاهدين العثمانيين للعمل في مراكز قيادة الثورة. وعاد الجزائريون، فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح، وعزم (كلج علي) على قيادة الحملة بنفسه للجهاد هنالك- فوق الأرض

الاندلسية- غير أن ما اشيع عن تجمع اسطول صليبي بهدف خوض معركة حاسمة مع المسلمين، وتوجيه السلطان العثماني له بالاستعداد لمجابهة هذه الملحمة، جعله مضطراً للبقاء في الجزائر، وانتظار تطورات الاحداث. غير ان الاسطول الجزائري لم يوقف نشاطه، واستمر الجزائريون في غزواتهم البحرية. وهدفهم تدمير كل ما يجدونه في طريقهم، وكل ما يعترض سبيلهم من السفن الاسبانية -تجارية أو حربية-. وما زادتهم نكبة الاندلس الاخيرة، وفشل الثورة فيها، الا شعوراً بالمرارة والظلم، الأمر الذي أدى الى تصعيد الصراع المسلح -وتوجيهه بصورة خاصة ضد الاعداء الاسبانيين في حاميتي (وهران والمرسى الكبير) وفي شهر نيسان -ابريل- سنة ١٥٧٨، هاجم الاسطول الجزائري بقوة وجرأة سواحل اسبانيا الشرقية والجنوبية، فحطم منشآتها، وغنم ما بها، وأسر وسبى من أهلها جمعاً كبيراً، انتقاماً من الموبقات التي ارتكبها الاسبان بحق المسلمين. وفي تلك السنة ايضاً هاجم الاسطول الجزائري جزائر الباليئار من جديد فحطم ما فيها وغنم ما بها. وفي سنة (١٥٨٢م) جهز والي الجزائر اسطوله لمحاربة اسبانيا فوق ترابها، وما تحتله من بلاد اوروبا. ونزل المجاهدون المسلمون في (برشلونه) فأعملوا فيها تدميراً، ثم قاموا بعد ذلك بعبور مضيق جبل طارق، وهاجموا (الجزائر الخالدات- او جزر الكناري) التي تحتلها اسبانيا. فدمروا المراكز الاسبانية وغنموا ما فيها. ورجع القبطان (مراد رايس- أحد امراء البحر الجزائريين المشهورين) بغنائم عظيمة[1]. ولم يكن الاسطول الجزائري يذهب للاندلس، لمجرد

(١) مراد رايس: مجاهد مسلم، احتفر على مقربة من الجزائر بئراً للسابلة، يروون منه، واقيمت قرية بعد ذلك حول البئر، ثم تطورت. ويحمل البئر حتى اليوم اسم (بئر رايس) والقريه (قرية بئر مراد رايس). وأصبح اسمها منذ الاحتلال الافرنسي للبلاد باسم (بير ماندريس).

التنكيل بالاسبانيين، ولتدمير منشآتهم، وأخذ الاسلاب والاسرى منهم، بل كان يهدف بالدرجة الاولى إنقاذ المسلمين من نكبتهم. وتعرض الأسطول الجزائري أثناء ذلك لمعارك قاسية، وللهزائم أحياناً، ومنها موقعة سنة (١٥٨٥ م) حيث اصطدم الأسطول الجزائري باسطول اسباني كبير- من أسطول جنوه - ووقعت معركة أسفرت عن أسر (١٨) سفينة جزائرية. ونجحت الجهود في هذه الفترة بإنقاذ اكثر من عشرة آلاف مسلم أندلسي.

بقيت جذوة الثورة الاسلامية متوقدة فوق أرض الأندلس، ولم تتمكن لا محاكم التفتيش، ولا أعمال القمع الوحشية للثورات المتتالية من إخمادها أو القضاء عليها. ولم يفقد بقايا الاندلسيين الذين نجوا من المذابح، وآثروا البقاء في موطن الاجداد، الأمل في إنقاذ جزء من وطنهم، يقيمون فوقه بحرية، ويمارسون عباداتهم بدون قهر على ثراه، ويرجعون اليه من شاء الرجوع من أبناء عمومتهم وإخوانهم الذين شردوا وراء البحار. وكان هؤلاء (الموريسكو) كما يدعوهم الاسبان، أهل همة ونجدة ونخوة، وأهل صناعة وفن ومال، لم ينسوا دولتهم، ولم يتخلوا عن دينهم، ولم يفقدوا ثقتهم بأنفسهم على الرغم من انقضاء فترة مائة وعشرين سنة من تحطيم الاسبان لدولة غرناطة، وبعدما لحقهم من طغيان وظلم وارهاق، وإرغام على اعتناق المسيحية ظاهراً، وهم يكتمون الإيمان الشديد، وينقلون لأولادهم سراً، عظمة الإسلام وحب العرب. وأفاد هؤلاء من ضعف اسبانيا ووهنها، واضطرارها لعقد معاهدة لاهاي (سنة ١٦٠٩م) مع الثائرين عليها من رجال الفلانور بشمال أوروبا، وقرروا إعلان الثورة، وكانت هذه الثورة على اتصال بفرنسا - عدوة اسبانيا التقليدية - والتي كانت آنذاك

تحت حكم (الملك هنري الرابع) [1] كما كانت على اتصال بوالي الجزائر في تلك الفترة (رضوان باشا). ونظمت عملية الثورة لتكون على النحو التالي:

١ـ يتحرك الأسطول الإفرنسي، حاملاً جيشاً إفرنسياً قوياً الى اسبانيا، وينزل بمدينة (دانية).

٢ـ يتحرك الأسطول الجزائري في الوقت ذاته، ويتحرك نحو (دانيه) لحماية عملية إنزال القوات الإفرنسية إلى البر، ثم يقوم الأسطول الجزائري بإنزال قواته بعد ذلك ـ بحماية الأسطول الإفرنسي.

٣ـ في الوقت ذاته، يقوم مائة ألف رجل من بقايا مسلمي الاندلس، بثورة عامة داخل البلاد، مما يضع الجيش الاسباني أمام تهديد مزدوج، تهديد قوات المسلمين على مؤخراته، وتهديد قوات الغزو في مواجهته.

غير أن التحرك الواسع، والاتصالات لإعداد الثورة لم تكن

---

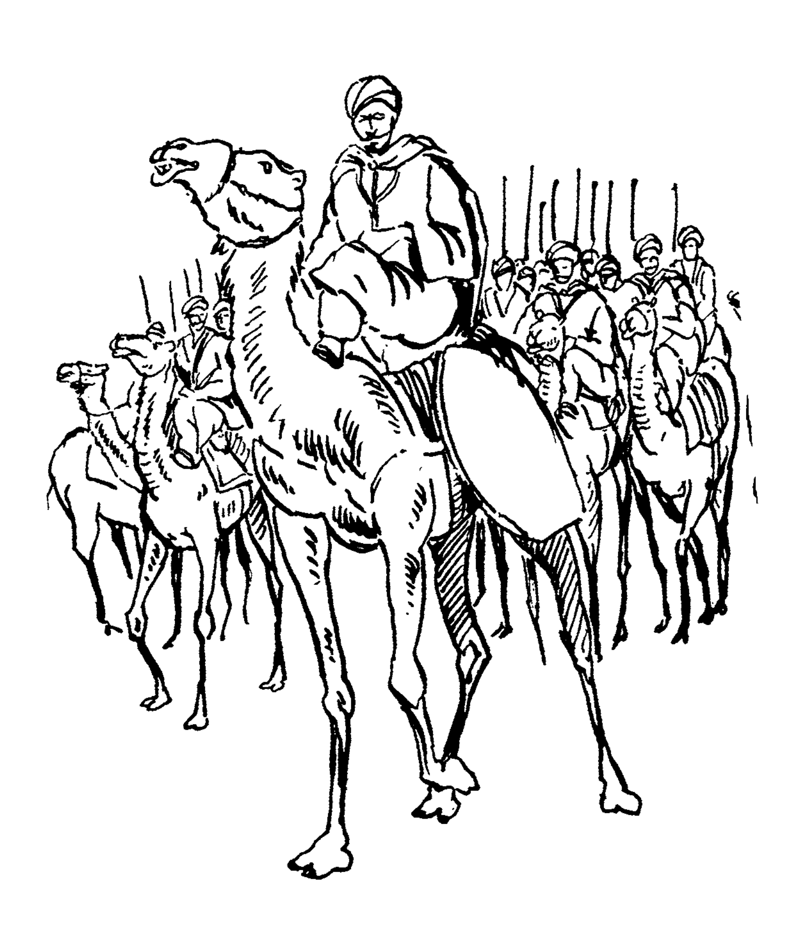
(١) هنري الرابع: (HENRI- IV -LEGRAND) ابن (انطوان دوبوربون) و (جين البرت) ولد في مدينة (بو: PAU) جنوب فرنسا (باس بيرينّة (١٥٥٣ـ١٦١٠م) أصبح سنة (١٥٧٢) ملكاً لمملكة نافار باسم هنري الثالث، ثم أصبح ملكاً لفرنسا (سنة ١٥٨٩ م) تزوج سنة ١٥٧٢ من (مارغريت دوفالوا). خاض مجموعة من الحروب لتوحيد المملكة الافرنسية ولقيادة حركة الاصلاح. ونجح سنة (١٥٩٨) في دخول باريس بعد أن فشل في ذلك من قبل بسبب تدخل الاسبانيين. ونجح في فرض سيطرته على كل الاقاليم. واصلح الانظمة المالية والزراعية واكتسبت فرنسا في عهده قوتها وعظمتها. وتزوج بعد ذلك من ماري دوميديسي: (MARIE DE MEDICIS) التي اصبحت وصية على الملك لويس الثالث عشر. وقتل هنري الرابع غيلة من قبل رجل اسمه بافاياك: BAVAILLAC عندما كان على وشك البدء بتنفيذ مشاريعه السياسية الضخمة.

خافية على مراقبة الحكم الاسباني، فأصدر الملك (هنري الثالث) ملك اسبانيا أمراً يوم ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٦٠٩م بإبعاد كل موريسكي - مغربي مسلم - من أرض اسبانيا، وأعطاهم لذلك أجلاً لا يتعدى ثلاثة أيام كي يتجمعوا في الموانىء المعينة لهم من أجل ركوب البحر وهكذا خرج من اسبانيا آخر فوج من بقايا مسلميها الذين اعتنقوا النصرانية مرغمين، وكانت أغلبيتهم العظمى من العرب المسلمين، وقامت سفن الأسطول الجزائري فنقلت معظمهم إلى عاصمة الجزائر، فمنهم من توجه بعد ذلك الى تونس أو تطوان (تيطوان) ومنهم من أقام في سهل متيجة (متوجة) بالقرب من الجزائر.

ترى هل كان من الافضل استكانة هؤلاء (الموريسك) وعدم القيام بالثورات المتتالية الأمر الذي أدى إلى إخراجهم من الاندلس؟

قد يكون من المحال محاكمة ذلك الحدث التاريخي بأي مقياس من المقاييس التي تخرج عن الحدود المكانية والزمانية التي أحاطت بالحدث، غير أن مجموعة الشواهد التاريخية المتوافرة تؤكد أنه لم يكن أمام مسلمي الأندلس خيار (غير الثورة) مهما كانت نتائجها، إذ أنها لن تبلغ في أسوأ تلك النتائج مقدار ما كان يجابهه هؤلاء المسلمون من سوء المعاملة. ومن المحتمل القول أنها كانت (ثورة يأس) غير أنها لم تكن كذلك فعلاً، إذ كان تصميم الثوار كبيراً، وإيمانهم بالنصر عظيماً - بدلالة بقاء ثورة البشرات مدة سنتين كاملتين - وبالإضافة إلى ذلك، فان هدف الثورة لم يكن من اجل منازعة الاسبانيين خلال تلك الفترة ملكهم، وإنما كان الحصول على كيان ذاتي يضمن لهم ما سبق أن تم الاتفاق عليه يوم استسلام ملك غرناطة للملك فرديناند، من شروط تضمن للمسلمين (حريتهم). وهكذا كان التعصب الصليبي مرة أخرى هو الحافز للتعصب الإسلامي الذي أوقد نار الثورة وأدى إلى

ذلك العداء المستحكم الذي لم يتوقف عند حدود إخـراج المسلمين من الأندلس وانما تطور إلى صراع مستمر اخذ شكل حملات صليبية متتالية ضد المغرب العربـي الاسلامي عامة، وضد الجزائر المجاهدة منها بصورة خاصة.



﴿ وقَـاتِلُوهم حتَّى لا تكون فتنـة ويكَون الدين كُلهَ لله، فانْ انتهوْا فان الله بَما يَعْملُونَ بَصيرْ. وإنْ تَولَّوا فاعْلمُوا أنَ الله مَوْلاكُم، نعم المَوْلىٰ، وَنعمَ النَصير﴾

(سورة الانفال - ٣٩ و ٤٠)

الفصل الثاني

١- الجزائر، وبناء القدرة الذاتية

آ- تحرير بجاية. (١٥٥٥م)

ب- انتصار المسلمين في مستغانم (١٥٥٨م)

ج- معركة المرسى الكبير (١٥٦٣م)

د- تحرير تونس (١٥٧٣ م)

هـ- انتصار المجاهدين في أصيلا (المغرب) (١٥٧٥م)

٢- انكلترا تشن الحرب على الجزائر (١٦٢٠م)

٣- الأعمال العدوانية الإفرنسية (١٦٦٤ و ١٦٨٢م)

٤- القتال حول وهران وتحريرها (١٧٠٥ - ١٧٠٨ م)

٥- الاسبانيون يعودون الى وهران (١٧٣٢م)

٦- تبادل الاسرى، والمعركة البحرية أمام الجزائر (١٧٧٣م)

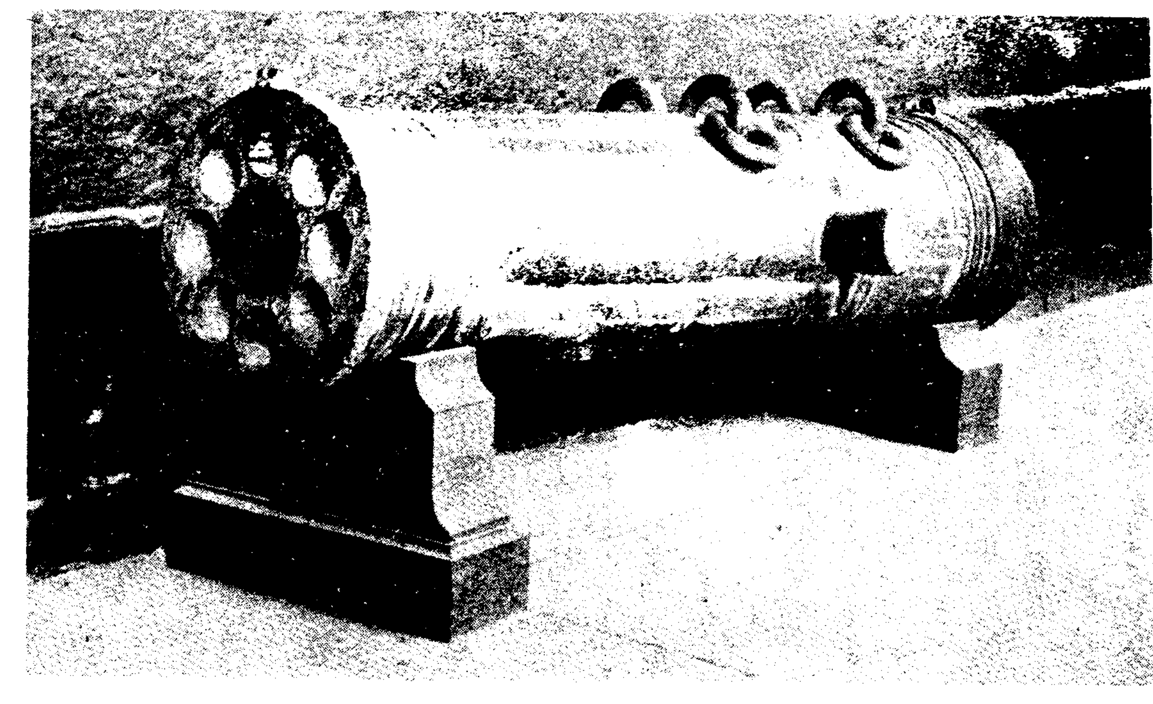
٧- الجزائر تدمر الحملة الإسبانية الكبرى (١٧٧٥م)

٨- معركة بحرية جديدة أمام الجزائر (١٧٨٤م)

٩- واخيراً - تحرير وهران (١٧٩١ م)

١- الجزائر وبناء القدرة الذاتية

أصبحت الدولة الجزائرية مكتملة البنيان، لها حدودها المعترف بها من قبل جوارها، ولها جهاز حكمها المستقل والتابع إسمياً للامبراطورية العثمانية الإسلامية، ولها جيشها المنظم وأسطولها القوي، والأهم من ذلك كله هو توافر الإدارة الصلبة لدى الشعب المجاهد في الجزائر للاضطلاع بدوره الكبير في بناء مستقبله ودعم قدراته الذاتية وممارسة دور أساسي وحاسم في قيادة الجهاد في سبيل الله ومجابهة الحملات الصليبية الشرسة، وقد استطاع (عروج وخير الدين وابنه حسان) تجسيد طموحات شعب الجزائر وأهدافه، ومن هنا كان الدعم الكبير الذي لقيه (ذوي اللحى الشقراء) من أبناء الجزائر للمضي قدماً على طريق الجهاد. وقد تم استدعاء (حسان خير الدين) إلى عاصمة الامبراطورية العثمانية، في سنة ١٥٥٢م، نتيجة مناهضته للسياسة الإفرنسية التي كانت تستثمر الصراع الإسلامي-الاسباني، لتدعم نفوذها في العالم الإسلامي، ولتمضي في تحقيق هدف الصليبية ذاته ولكن بطريقة متطورة. ومن داخل العالم الإسلامي لا من خارجه، وتم تعيين (المجاهد صالح رايس) لولاية الجزائر برتبة حاكم عام (باي لرباي) أثناء فترة غياب (حسان خير الدين) التي امتدت أربع سنوات (١٥٥٢-١٥٥٦).



مدفع جزائري ذو تسع فوهات: (متحف الانفاليد)

لقد عرف الشعب الجزائري (المجاهد صالح رايس) من خلال جهاده الصبور في البحر، برفقة أصحاب (اللحى الشقراء). وعرف فيه الكفاءة القيادية العالية، والشجاعة في مواجهة مواطن الخطر في البر والبحر، وقدرته غير المحدودة على العمل، وإخلاصه الكبير لقضية (الجهاد وبناء القدرة الذاتية) ولهذا لم يكن من الغريب أن يبادل الشعب الجزائري هذا القائد إخلاصاً بإخلاص ووفاء بوفاء. فمضى صالح رايس بعزيمة صادقه لتحقيق أهداف شعبه والتي تمثلت بطموحين أساسيين أولهما: تحقيق الوحدة الكاملة بين مختلف اقاليم الدولة الجزائرية، وتوثيق عرى وحدة شعبها. وثانيهما: إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية (فيما يلي الزيبان) ضمن إطار هذه الوحدة.
ولم تكن أهداف (بناء القدرة الذاتية) من خلال وحدة التراب والشعب، عند الجزائريين وحكامهم إلا الوسيلة لتحقيق طموح أكبر، وهو: طرد الاسبانيين وإخراجهم من مواقعهم التي احتلوها فوق الأرض الجزائرية ووضع حد نهائي وحاسم لعمليات الصراع الداخلي والذي يجد محرضاً له في (الدولة المغربية السعدية). والانطلاق بعد ذلك للجهاد في مجابهة العدوان الخارجي الممثل بصورة خاصة بالعدوان الاسباني الذي أخذ على عاتقه قيادة الصراع ضد المسلمين. وبدأ (صالح رايس) بالعمل قبل كل شيء لتحقيق الوحدة الداخلية، وكانت في الجنوب الجزائري إمارتان مستقلتان (إمارة توقرت) التي كان يتولى أمرها ملوك بني جلاب يتوارثونها كابراً عن كابر، وإمارة (بني وارجلان) ـأو (ورقله) ويتولى أمرها الشيوخ الأباضيون ورثة دولة بني رستم، ويمتد سلطانها إلى قرى وادي ميزاب غرباً وإلى المنيعة جنوباً. وكانت الإمارتان قد دخلتا أيام (خير الدين باشا) ضمن الوحدة الجزائرية، وتعهدتا بدفع مقدار معين لخزانة

الدولة بمدينة الجزائر. لكن ابتعاد خير الدين عن إدارة المملكة فعلياً أواخر أيام حياته، وانصراف الدولة الجزائرية إلى معالجة أحداث (تلمسان) وأحداث (المغرب) جعل الإمارتين تقلعان عن دفع ما يترتب عليهما، وتعلنان استقلالهما عن إدارة الجزائر. وحاول (صالح رايس) إعادة الإمارتين بالطرائق الديبلوماسية غير أن الاتصالات والمراسلات فشلت في الوصول إلى التسوية المطلوبة، فتقرر اللجوء إلى السلاح إذا ما تطلب الأمر. وتحرك الجيش الجزائري من مدينة الجزائر تحت قيادة (صالح رايس) وذلك في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٥٥٢م. متوجهاً الى الجنوب، وانضم له في (مجانة) سلطان قلعة بني عباس (عبد العزيز) ومعه نحواً من ثمانية آلاف مقاتل من رجال القبائل الجبلية، وسار الجميع نحو (توقرت)، حيث تمت مهاجمة (واحات توقرت) وكانت قوة الصدمة أكبر من أن يحتملها ملك توقرت وجيشه، وبعد معركة قصيرة وحاسمة ـ أزهقت فيها أرواح كثيرة من الطرفين المسلمين ـ أمكن تصفية المقاومة في (توقرت) والقضاء على حكم (بني جلاب) وضم توقرت نهائياً إلى السلطة المركزية وتوجه جيش الجزائر بعدها إلى (بني وارجلان) واجتمع هنا شيوخ (ورقله) واعلنوا رفضهم لقتال اخوتهم المسلمين، وانضمامهم للدولة الجزائرية وأصبحوا منذ تلك الفترة جزءاً لا ينفصل ـ والى الابد ـ عن دولتهم الجزائرية، وتعهدت لهم الدولة بالمقابل، احترام مذهبهم (الإباضي) وحرية ممارستهم له، والاحتكام بمقتضاه بالنسبة لكل من يعتنقونه. غير أنه ما لبث أن ظهر الخلاف بين (صالح رايس) وبين سلطان قلعة بني عباس ومجانة (عبد العزيز). فبينما كان (صالح رايس) يرى توحيد البلاد في إدارة مركزية قوية، كان (عبد العزيز) يرى ضرورة الاستقلال بإدارة مملكته على أن يمد الدعم لحكومة الجزائر باعتباره

حليفاً لها. وأن يقدم هذا الدعم عندما يرى ذلك ضرورياً، بدون أي خضوع من قبله للإدارة المركزية. فكان لا بد من الصدام الذي أدى إلى صراعات مسلحة دموية، قتل اثناءها (الفاضل) أخو عبد العزيز ودارت الدائرة على جيش الجزائر في (بوغني) وذلك في شهر كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٥٥٢م (٩٥٩ هـ) وتلقى جيش الجزائر هزيمة أخرى بعد ذلك، على الرغم من انضمام بلاد كوكو إلى الجزائريين (باعتبار كوكو من الأعداء التقليديين لقبائل قلعة بني عباس).

واضطر (صالح رايس) الى التخلي عن الصراع مع (عبد العزيز) لفرصة اخرى. وعاد من جديد الى غزو الاسبان في البحر تمهيداً للأمر العظيم الذي كان هدفه الاسمى وهو غزو الاسبان في البر. فألقى باسطوله الضخم على جزائر الباليئار، وعلم (صالح رايس) بخروج سفن برتغالية تحمل رجالاً وعتاداً، وأنها تجتاز مضيق جبل طارق، فأسرع للتصدي لها، وداهمها واستولى عليها. وعند ذلك تبين أن الاسطول الذي يشمل ستاً من سفن النقل، كان يحمل سلطان فاس السابق (أبا الحسن علي بن محمد الوطاسي- المعروف بأبي حسون) والذي كان قد نجا من قبضة الشريف السعدي عندما بطش بالوطاسيين في فاس، وكان هذا الاسطول متوجهاً الى فرضة باريس على ساحل الريف المغربي، والتي يدعوها الاسبان (فاليس) من اجل محاربة السعديين، واعادة حكم الوطاسيين تحت إشراف البرتغاليين وحمايتهم. واتفق (صالح رايس) بسرعة مع (أبي حسون) على أن يدعمه لاستعادة ملكه مقابل اعتراف (أبو حسون) بالتبعية للسلطان العثماني (سليمان القانوني) والدعاء له على المنابر. والاستعداد لتجهيز الجيوش لمباشرة غزو اسبانيا مع (صالح رايس). وجهز هذا قوة بحرية تضم (٢٢) سفينة تحمل الرجال ووسائط القتال

في شهر ايلول (سبتمبر) ١٥٥٣م. وسيرها بحراً نحو مليلة، بينما خرج هو بنفسه على رأس جيش جزائري يضم (٨) آلاف مقاتل فمر بتلمسان، وعزز جنده بالحامية التي كانت فيها، ودخل حدود المغرب الأقصى، بينما كان (أبو حسون) يجمع حوله الأنصار من بني مرين وأعداء الأشراف السعديين. ثم اجتمع الجيشان ودخل صالح رايس مدينة (فاس) في يوم ٨ كانون الثاني (يناير) ١٥٥٤م (الموافق ٣ صفر ٩٦١ هـ) ونصب بها السلطان أبا حسون.، تحت حماية الدولة العثمانية، وذلك بعد مصادمات وعدة معارك دارت بين أنصار الدولتين (المرينية والسعدية) سالت فيها الدماء الغزيرة.

ومكث (صالح رايس) بمدينة (فاس) لمدة أربعة أشهر، ضمن خلالها استقرار الأمر لأبـي حسون، واخلاص الدولة المرينية الجديدة للخلافة العثمانية. وخلال ذلك، لم يتوقف (صالح رايس) عن متابعة الجهاد ضد الاسبانيين، فأرسل قوة من جيشه الى (بلاد الريف) فاسترجع من الاسبانيين (معقل باديس الكبير)-أو صخرة فاليس- ثم رجع الى الجزائر تاركاً لأبـي حسون حامية تركية، لدعمه من جهة، وضمان وفائه بالتزاماته من جهة ثانية. لكن الأمر لم يستقر طويلاً لأبـي حسون. فما كاد صالح رايس يرجع الى الجزائر، حتى جمع الشريف السعدي جيشاً كثيفاً، وهاجم فاس، والتحم في معركة قاسية مع أبـي حسون الذي قتل أثناءها، ودخل الشريف فاس من جديد، لكنه وجد أن معظم سكانها يميلون الى (بني مرين) فكان من الصعب عليه الاعتماد عليها وجعلها عاصمة لملكه، فقرر الانتقال الى (مراكش) وجعلها عاصمة لمملكته الجديدة[1].

---

(١) ورد في كتاب (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص ٣٤١. ما حدث في لقاء (صالح رايس) مع (أبي حسون) ونقد سلوك صالح رايس. بما يلي: «قص أبـي حسون =

اغتنم (صالح رايس) فرصة وجوده بتلمسان، فجمع مجلس العلماء فيها بعدما بلغه من كثرة تذمر أهل المدينة وشكواهم من (الملك حسن) الذي اشتهر بالانحراف عن الدين - الخلاعة والمجون - وأفتى العلماء بخلع (الملك حسن) فتم ذلك - وضمت تلمسان نهائياً للادارة المركزية في الجزائر سنة (١٥٥٤م) على نحو ما سبق عرضه.

آ - تحرير بجاية (١٥٥٥م)

كان (صالح رايس) يتابع خلال ذلك كله جمع المعلومات عن موقف الحاميات الاسبانية، وعما يقوم به المواطنون الجزائريون من مقاطعة لها وتضييق عليها، حتى وصل بها الأمر الى حالة كبيرةً من الضعف وعندها قرر توجيه ضربته الحاسمة الى (بجاية). فحشد جيشاً من (٣٠) ألف مقاتل وتولى قيادته، وسار به من الجزائر الى بجاية في شهر حزيران (يونيو) ١٥٥٥م. وانضمت اليه أثناء التقدم قوات المجاهدين من (زواوة) من (إمارة كوكو). ووصلت الجيوش الجزائرية، فضربت حصاراً على المدينة، ووصل الاسطول الجزائري وهو يحمل المدفعية ووسائط القتال الثقيلة. ووجه المجاهدون نيران

= على (صالح رايس) قصته، فقال: انه ذهب أول الأمر الى شرلكان، يطلب منه أن يعينه على استرجاع عرشه. لكن شرلكان لم يستجب لدعوته، ولم تكن حالته تسمح له بالتورط - تلك الساعة على الأقل - في حرب مع المغاربة. وأن الأمر يهم البرتغاليين أكثر منه. يومئذ سار أبو حسون (الذي لم يكن يهمه شخص من يعينه على الرجوع الى العرش وهويته، انما يهمه الرجوع الى عرش فاس على أي حال) الى ملك البرتغال سنة ١٥٥٣م. وكان هذا الملك موقوراً من الأشراف السعديين الذين أخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من أرض المغرب الأقصى ومن سواحله، فقرر اعانته، وأمده بالسفن والمال والرجال، وكانت تلك هي العمارة التي أسرها صالح رايس. وهنا أخطأ التوفيق في نظري صالح رايس الذي كان عليه أن يكتفي بأخذ العمارة، وأسر رجالها، وابقاء أبي حسون عنده، وأن يتخذ بذلك يداً عند السعديين، ويستميلهم اليه، أو يضغط عليهم بواسطته».

مدافعهم الى القلعة بعد أن تم تشديد الحصار عليها.

كان حاكم بجاية الاسباني (دون الونزو كاديلو) قد عرف مسبقاً بتحرك القوات الجزائرية، فأرسل الى اسبانيا يطلب الدعم، وعمل في الوقت ذاته على (تخزين) المواد التموينية بكميات تكفي لحصار طويل.

وأثناء ذلك، هطلت أمطار الخريف المبكرة بكميات وفيرة، فارتفع مستوى المياه في (وادي الصومام) وأصبح باستطاعة السفن الجزائرية الافادة منه واستخدامه من اجل اجتياز المصب والوصول الى ما وراء المدينة بمسافة خمسة كيلو مترات تقريباً. وامكن بذلك الوصول الى المرتفعات المواجهة للقلعة والتحصينات الدفاعية، واحتلت المدفعية مرابضها في المواقع المناسبة للرمي المباشر. وبدأت المعركة بتبادل القذف المدفعي. ثم هاجم الجزائريون حصن (القصر الامبراطوري) واستولوا عليه عنوة. وكانت المدفعية قد دمرته تدميراً كاملاً وحولته الى أنقاض. ولهذا بدأت القوات الجزائرية على الفور باقامة التحصينات من جديد واعادة بناء الجدران. والافادة من موقع الحصن لتأمين مرابض جديدة للمدفعية، مع تأمين مراقبة أفضل للحامية الاسبانية التي شرعت في اعادة تنظيم قواتها لدعم مواقعها الدفاعية في المعقل (القلعة). ورأى القائد الاسباني صعوبة الاستمرار في المقاومة بدون دعم خارجي، فأرسل رسالة الى ملكة اسبانيا (خوانة) [1] يستنجد فيها، ويشرح موقف الحامية المدافعة عن (بجاية).

---

(١) كان نص الرسالة التي وجهها قائد الحامية الاسبانية الى ملكة اسبانيا -كما وردت في (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني - ص ٣٤٥- ٣٤٦ ما يلي: (بجاية -١٧ ايلول- سبتمبر -١٥٥٥- أرسلت من قبل رسالة لسموكم ابلغكم فيها الحالة التعسة التي وصلت اليها مدينة بجاية، وحاجة هذا المعقل للنجدة السريعة. لا توجد ابداً أية جدران حصينة =

غير أن القوات الجزائرية لم تمهل الحامية الاسبانية فوجهت نيران مدافعها الى معقل (باب البحر) واستمر قصفها له خمسة أيام متوالية، ودافعت الحامية عن مواقعها بثبات وعناد، ونجح المجاهدون في تحديد مكان (مخزن البارود) ووجهوا اليه نيرانهم المحكمة، مما أدى الى انفجار المخزن بقوة دمرت جدران الحصن، فاندفع المجاهدون بعنف وقوة، وتحولت المعركة الى اشتباك دموي ـ بالسلاح الأبيض ـ وامكن إبادة القسم الاكبر من الحامية الاسبانية وأسر الباقين منها. وبقيت هناك عقبة كبرى، دون فتح المدينة، هي قلعة (القصر الكبير) الذي كانت تدافع عنه حامية قوية، وكان (القصر الكبير) يشكل في حد ذاته معقلاً هائلاً مميزاً بجدرانه القوية مما جعله المركز الاساسي للمقاومة الاسبانية. وانصرف رجال الحامية الاسبانية ونساؤها وحتى أطفالها وما فيها من عبيد للعمل في الليل والنهار من أجل إقامة جدار دفاعي جديد، لحماية (القصر الكبير) الذي بلغ ارتفاعه (١٥) قدماً. وكان

= تستطيع الصمود أمام هذه المدفعية المرعبة التي نصبها (الكلب) ملك الجزائر أمام بجاية، فخلال يومين اثنين، حطم الاتراك بصفة تامة الحصن الامبراطوري، وسدوا الخنادق، وأصبح من المحال الاستمرار في المقاومة. وصرت أتلقى من رجال الحامية رسائل تسألنا ـ أنا والمراقب ـ أن نعمل على انقاذهم باسم الرب. وقد جمعت مجلساً حربياً مؤلفاً من كبار الضباط ـ ذكر اسماءهم ـ واتفقوا بأنه لا يمكن المقاومة اكثر من هذا الحد. فكل شيء قد تحطم حتى الاساس، ودمرت الجدران، . . . ومن اجل ذلك اتفقنا على تسليم الحصن، وتدمير الاقواس والركائز التي لا تزال قائمة. . . ونحن ننتظر مصيرنا، فالاتراك قد صوبوا مدافعهم الآن نحو المدينة ذاتها وهم كثيرون ومسلحون بالبنادق النارية. . . نرجوكم رجاء حاراً أن تفكروا في اهمية (بجاية) وفي حصونها، فاذا ما تمكن هؤلاء الاتراك الاشقياء دمرهم الله من احتلالها، فان كل قوى جلالة الملكة لن تستطيع مجتمعة اخراجها منها. والتمس من سموكم اصدار الأوامر لكي نتلقى من اسبانيا المدد اللازم بأقصى سرعة ممكنة، ولتعتقد سموكم انني مستعد للموت ـ كوالدي ـ في سبيل الله وفي سبيل صاحب الجلالة). .

افراد الحامية، يرمون بالليل كل ثلمة تحدثها مدفعية الجزائريين في النهار.

أراد (صالح رايس) الاقتصاد في الجهد، فأرسل رسالة الى حاكم (بجاية) يطلب اليه الاستسلام [1]،غير أن هذا رفض الانذار الجزائري .واستمرت المقاومة خمسة أيام أخرى، أخذ بعدها المجاهدون الجزائريون في تسلق جدران الحصن بعد أن ردموا الخنادق المحفورة حوله، وحاولوا اقتحامه بينما كانت المدفعية الجزائرية تتابع قصف الاهداف المعادية. وعندها جمع حاكم (بجاية) وقائد حاميتها الرجال حوله، وتشاور معهم، فأشاروا كلهم بوجوب الاستسلام، ولم يكن عددهم عندئذ يزيد على مائة وعشرين مقاتلاً. فأرسلوا الى (صالح رايس) يعلمونه بقرارهم، فقبل استسلامهم، وبر لهم بوعده السالف رغم انهم استمروا في القتال ورفضوا الانذار. وسمح لهم جميعاً بالعودة الى اسبانيا. ودخل الجزائريون المدينة، وقد ارتفع فيها التهليل والتكبير، وأخذوا على الفور بتطهير المساجد وازالة ما وضعه فيها

---

(١) أرسل (صالح رايس) رسالة الى حاكم مدينة بجاية الاسباني، يطلب اليه الاستسلام، وفيها: «أنا ملك الجزائر، اكتب اليك يا حاكم مدينة بجاية ـلقد رأيت كيف أن رجالي قد استطاعوا احتلال معقلين من معاقل دفاعكم، ثم انك ولا ريب تعلم انني قد عقدت العزم بصفة حاسمة على أخذ هذه القلعة التي تدافعون عنها أيضاً. ولتعلم أنك لن تتلقى أبداً أدنى اعانة من اسبانيا، لانني قد أخذت السفينة التي بعثت على متنها من يطلب النجدة، وبما أنه قد اقتربت ساعة سقوط المدينة، وانك لن تستطيع أصلاً النجاة والافلات من قبضة يدي، فأنا أطلب اليك أن تستسلم، وأن تسلم المدينة لي. وأنا أتعهد لك مقابل ذلك بأنني لن أمسك أنت ولا أي رجل من الرجال الملتفين حولك بسوء. أما اذا استمر بك العناد فلن يكون مصيركم جميعاً غير الموت ـ عليك برد الجواب حالاً، مع حامله حسن ـ» وقد كتبت هذه الرسالة باللغة البرتغالية ـ المرجع (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص٣٤٧.

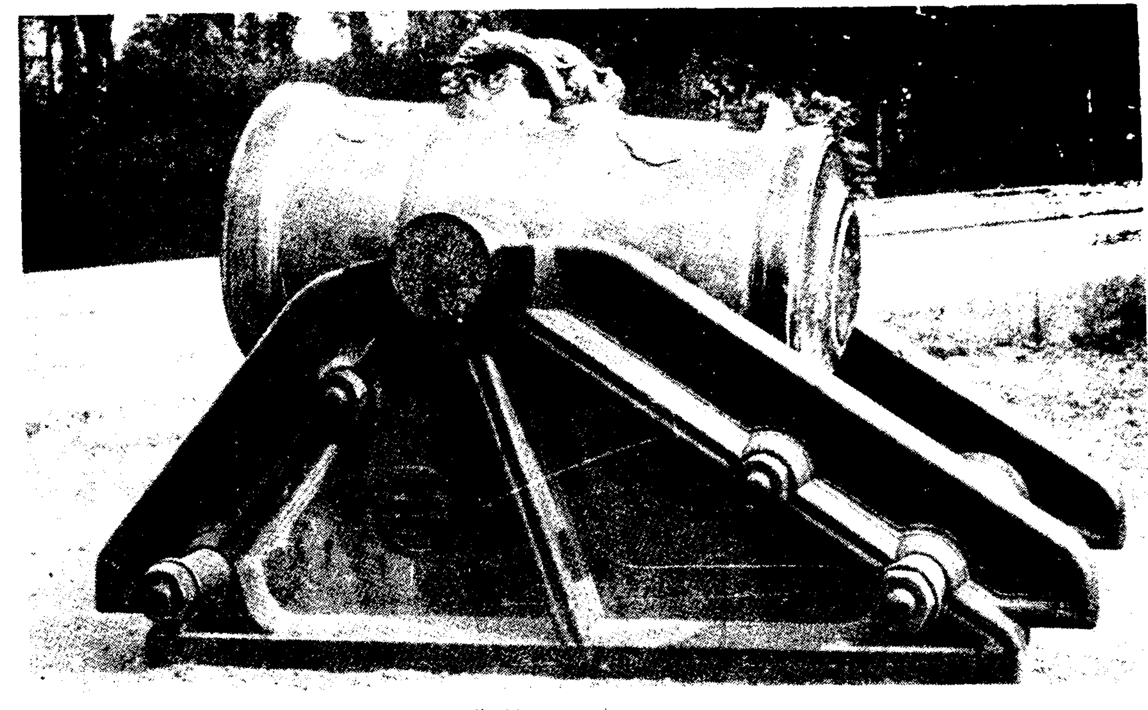
الغزاة من الصلبان، وأعادوها الى سابق عهدها، مساجد لعبادة الله وحده الذي صدق وعده ونصر عبده. وأخذ النازحون عن (بجاية) بالعودة اليها. وشرعوا في اعادة بناء مدينتهم وترميمها وتضميد جراحها، ولم تمض اكثر من فترة قصيرة حتى زال كل أثر للاستعمار الصليبي الذي جثم على صدر بجاية لمدة نصف قرن.

ما ان ترددت اصداء انتصار المسلمين في بجاية، حتى اجتاحت اسبانيا بصورة خاصة موجة من الهياج والثورة التي وجدت اصداء قوية لها في وسط الامم الاوروبية الصليبية ودوائر البابا في روما، وكان لا بد من تهدئة هذه الجائحة الثائرة بضحية يتم تحميلها المسؤولية، ووقع اختيار الحكومة الاسبانية على قائد حامية بجاية، الذي لم يكن باستطاعته، او باستطاعة غيره- الصمود والمقاومة باكثر مما تم بذله. وشكلت محكمة عسكرية اصدرت حكمها باعدامه. واقتيد الى ساحة عامة بعد أن تم تعذيبه وتجريده، واقبل الجلاد فهوى بفأسه على الضحية، وفصل الرأس عن الجسد، ثم رفع الرأس ليردد ما تم تلقينه له، حيث اطلقت المقولة المشهورة:

(أيها الشعب، هذا رأس رجل نذل فقده صاحبه، بعدما فقد شرفه).

انطلقت القوات الجزائرية لاستثمار هذا الظفر الرائع. فمضت لتحرير الساحل الشرقي للجزائر، من كل آثار الاحتلال الاسباني، ومنها مدينة القل (التي يعود تاريخ استعمارها الى سنة ١٢٨٢م). والتي كانت قصة احتلالها مأساة في جملة المآسي التي تعرض لها المغرب العربي الاسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية.

أصبح باستطاعة (صالح رايس) التفرغ لتطهير غرب الجزائر



مدفع هاون جزائري (متحف الانفاليد)

من الاحتلال الاسباني، والتركيز على وهران بصورة خاصة. غير أن مجموعة من العوائق اعترضت سبيل التحرير. واستشهد صالح رايس (بمرض الطاعون في رجب ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٦) ثم استشهد بعد ذلك حسان قورصو، فأصدر (الباب العالي) قراره باعادة (حسان خير الدين) والياً على الجزائر، لتبدأ صفحة جديدة من الجهاد.

ب ـ انتصار المسلمين في مستغانم ـ (١٥٥٨م)

تعرضت الجزائر لمجموعة من الانتكاسات بعد انتصارها الكبير في (بجاية). وتوافقت ظروف بعضها طبيعي وبعضها غير طبيعي، لتشكل ما يمكن تسميته بالاصطلاح الحديث (الهجمة المضادة) والتي كان من أبرز احداثها قيام قوات الاشراف السعديين في المغرب باحتلال (تلمسان) واخضاعها لهم.

وفي هذه الفترة، وصل حسان خير الدين الى الجزائر (في شهر شعبان ٩٦٤ هـ =حزيران ـ يونيو ـ ١٥٥٧م). فكان لذلك أصداء قوية فرح لها أهل الجزائر على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، وعادت الثقة للمجاهدين. ومضى حسان لاصلاح جهاز الادارة قبل كل شيء، والى اعادة تنظيم القوات المقاتلة. ومضى بعد ذلك بجيشه الى الغرب الجزائري، لارجاع جماعة (الشريف السعدي) الى ما وراء حدوده المتفق عليها، ولانقاذ الحامية الجزائرية التي بقيت صامدة تحت قيادة الامير صفطه (في المشور) وهي تقاوم قوات السعديين. وعندما وصل الجيش الجزائري (تلمسان) انسحبت قوات السعديين الى ما وراء نهر الملوية، ولم تحدث سوى بعض الاشتباكات الثانوية. ولكن حسان أراد الافادة من هذه الفرصة للقضاء على دولة السعديين المستقلة (لا سيما بعد مقتل الشريف وقيام ابنه عبد الله الغالب بالله

مقامه). فمضى بجيشه حتى وصل الى قرب مدينة (فاس).

والتقى الجيشان على (وادي اللبن) ودارت معركة قاسية وغير حاسمة، وهنا وصلت معلومات الى حسان تفيد بتحرك القوات الاسبانية من وهران، وخشي أن يؤثر هذا التحرك على خطوط مواصلاته، وأن يعزله عن قاعدته في الجزائر، فقرر فك الاشتباك، وعاد بجيشه الى مرفأ (قصاصة) في الشمال. وأركب قواته ومدفعيته وعتاده السفن. وفي الوقت ذاته عاد القائد (صفطه) القائم باسمه على مدينة تلمسان، ومعه حاميته الى قاعدته. وما ان وصل حسان بجيشه الى الجزائر، حتى حشد اكبر قوة متوافرة له بهدف مهاجمة الاسبانيين في وهران وأرسل الى جموع المجاهدين في النواحي يطلب اليهم الانضمام الى قوته عند مجرى (نهر الشلف).

كان حاكم وهران (د. الكوديت) يتحرك في الوقت ذاته على رأس القوى التي أمكن له حشدها نحو الشرق قاصداً مدينة (مستغانم). وقد ضم جيشه (١٢) ألف مقاتل اسباني بالاضافة الى جماعات كبيرة من الاعراب المرتزقة (القائد المنصور بن بوغانم) ومن معه من بني عامر وبني راشد وسواهم بالاضافة الى مدفعية ضخمة وكميات وافرة من الذخائر وعدة سفن محاذية للجيش تحمل المؤن ووسائط القتال الثقيلة.

كان (حسان خير الدين) يتابع تحرك القوات الاسبانية بيقظة وحذر، وكان الاسطول الجزائري مستعداً لمجابهة كافة الاحتمالات الخطرة. فلما كادت السفن الاسبانية تغادر مياه (أرزيو) وهي مثقلة بحمولتها حتى انقضت عليها السفن الجزائرية، واستولت عليها جميعاً، وانتقل كل ما كانت تحمله الى قبضة المسلمين، فتقووا به على

اعدائهم. وكان الكونت (د. الكوديت) وجنوده يتابعون المعركة البحرية، دون أن يكون باستطاعتهم التدخل فيها أو دعم قواتهم، فلما شهدوا انتقالها الى قبضة المسلمين أصيبوا بخيبة أمل مريرة، وفت ذلك من روحهم المعنوية.

كان مخطط تحرك قوات المسلمين يقضي بتوجه جيش المجاهدين من الجزائر الى مستغانم. وفي الوقت ذاته تخرج حامية تلمسان ومن ينضم اليها من جموع المجاهدين بقيادة (الحاج علي-أو قلش علي) لتسير في الاتجاه المعاكس-على الطرق الداخلية-وهي متجهة من الغرب الى الشرق بهدف منع القوات الاسبانية من أي محاولة للتسلل نحو الداخل، أو القيام بمهاجمة القرى (الدواوير) للاستيلاء على ما فيها من المواد التموينية.

ودخلت القوات الاسبانية مدينة (مازغران) بدون مقاومة، وحطمت بوابتها الضخمة-الاثرية- لتنحت من حجارتها مقذوفات لمدفعيتها. ثم أسرعت في تحركها للوصول الى (مستغانم) والتحصن فيها قبل وصول جيش الجزائر. ووصلت فعلاً وهي بكامل قوتها الى ابواب المدينة يوم ٢٢ آب-أغسطس-١٥٥٨م. فاشتبكت على الفور في معركة ضارية مع قوات المجاهدين من عرب الضاحية الذين وصلوا دعماً للمدينة قبل وصول الجيش الجزائري، وتمكنوا من دخول منطقة الدفاع على الرغم من الحصار الاسباني.

أعلن الكونت (د. الكوديت) النفير العام عند مطلع فجر يوم ٢٣ آب-أغسطس-. وتقدم بكل قواته والقوات الموالية له من الاسوار التي لم تصمد لثقل هذه الهجمة، فتحطمت الابواب، غير أن المقاومة في الداخل لم تتأثر فمضت تلتحم مع الاسبانيين وحلفائهم، وتحولت

المدينة كلها ميداناً للحرب، وأصبح كل حي وكل طريق وكل منزل معقلاً يدافع عنه رجال الحامية واهل المدينة والمتطوعون. ولم تتمكن القوات الاسبانية من فرض سيطرتها، على الرغم من تفوقها الساحق، على أية منطقة أو موقع وتكبدت القوات المشتبكة خسائر فادحة في الارواح. ووصل القتال الى مرحلة حرجة بالنسبة للمجاهدين عندما ترددت أصداء وصول جيش الجزائر بقيادة (حسان خير الدين) الى شرقي المدينة وجنوبها (وكان جيش حسان يضم (٥) آلاف من المشاة رماة البنادق وألف فارس) وقد انضم اليه من المجاهدين الجزائريين أثناء التحرك (١٥) ألف مجاهد تقريباً وهم يحملون أسلحة مختلفة. واقتحم جيش الجزائر بمجرد وصوله المعركة، ودخل المدينة فوراً، وكان الصدام عنيفاً وقاسياً، غير أن كفة النصر رجحت لمصلحة المسلمين، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى تم إبعاد الاسبانيين وقذفهم الى ما وراء أسوار المدينة تاركين بين جدرانها عدداً ضخماً من القتلى والجرحى. وقضى الجانبان المتصارعان تلك الليلة وهما يضمدان جراحاتها ويعيدان تنظيم قواتها. حتى اذا ما أشرقت شمس يوم ٢٤ آب أغسطس - وجدت القوات الاسبانية والقوات المتحالفة معها من المسلمين أنها تقف أمام مأزق صعب جداً. حيث احاطت قوات المسلمين بميدان المعركة من كل جهاته، فقد وقف جيش الجزائر ومعه مقاتلي مستغانم والمجاهدين من العرب المسلمين في مواجهة القوات الاسبانية. في حين وقف الى يمين القوات الاسبانية جيش تلمسان بقيادة (الحاج علي). أما على يسار القوات الاسبانية فقد انتشر رجال البحر الذين غادروا سفنهم ونظموا قواتهم للاشتراك في حسم الصراع. في حين كانت مدفعية الاسطول الجزائري ترمي القوات الاسبانية بقذائفها المحكمة. وشدد المجاهدون قبضتهم على الاسبانيين وكانت أصوات التهليل والتكبير (صيحة الحرب) تثير فزع

الاسبانيين بمثل ما تثيره سيوف المجاهدين في سبيل الله. وهزت الحماسة نفوس المسلمين الذين كانوا يقاتلون الى جانب الاسبانيين فتخلوا عن مواقعهم وانضموا الى إخوانهم في الدين، في حين بقيت هناك فئة رفضت التخلي عن الاسبانيين، غير أنها رفضت في الوقت ذاته إشهار سيوفها في وجه إخوان الدين، فمضت الى خيامها واعتزلت القتال ولم تبق اكثر من فئة قليلة صممت على مساندة الاسبانيين حتى النهاية. غير أن هذه الفئة لم تعد قادرة على دعم الاسبانيين الذين لم يبق لهم من أمل الا التخلص من المعركة، وتأمين طريق للانسحاب، ولكن قوات المسلمين أمسكت بكل محاور التحرك، وأحدقت بميدان المعركة، وشددت قبضتها على العدو، وبات من المحال تأمين الانسحاب المنظم وحاول الجنود الاسبانيون عندئذ الفرار بصورة افرادية، غير أن قوات المجاهدين لم تترك لهم الفرصة، فمضت في مطاردتهم حتى بلدة (مازغران) وقتل القائد الاسباني (د.الكوديت) تحت اقدام جنوده وهم يتدافعون للوصول الى ابواب مازغران. أما ابنه فكان في عداد الأسرى. واحتل المسلمون (مازغران) وأسروا كل من التجأ اليها. فكان عدد القتلى والاسرى من الاسبانيين يزيد على (١٢) ألف. وانتهت المعركة مع غروب شمس يوم الجمعة (١٢ ذي القاعدة ٩٦٥ هـ الموافق ٢٦ آب - أغسطس - ١٥٥٨).

ج- معركة المرسى الكبير (١٥٦٣م)

لم يبق للاسبانيين فوق أرض الجزائر غير قاعدتين أساسيتين هما (وهران والمرسى الكبير) ولهذا فقد عملت الادارة الاسبانية على دعم القاعدتين بقوة ونظمتهما دفاعياً. وضمنت لهما القدرة على الصمود

والمقاومة. وفي الوقت ذاته مضت الادارة الجزائرية (بقيادة حسان خير الدين) لاكمال استعدادها من اجل تحرير القاعدتين المذكورتين واغتنام كل فرصة للتضييق على الحاميتين الاسبانيتين المدافعتين عنهما، حتى اذا ما كان يوم الخامس من شباط (فبراير) سنة ١٥٦٣ خرج من مدينة الجزائر جيش كبير يضم(١٥)ألفاً من رماة البنادق وألف فارس من الصباحية يقودهم أحمد أمقران الزواوي و(١٢) ألفاً من المشاة من قبائل (زواوة وبني عباس) وقام الاسطول الجزائري بنقل الاعتدة الثقيلة والمواد التموينية من الجزائر الى (مستغانم) التي أعدت لتكون قاعدة للعمليات.

وصل (حسان خير الدين) على رأس جيش الجزائر الى أمام مدينة (وهران) ومرساها الكبير يوم ٣ نيسان (ابريل) وأقام معسكره قريباً منها، واتخذ مقر قيادته في (رأس العين) واختار مرابض مدفعيته لتكون في مواجهة (حصن القديسين). وكان الاسبانيون في (وهران) قد أنهوا استعداداتهم الدفاعية ودعموا تحصيناتهم وقلاعهم. وتولى قيادة الحامية (دون الونزو دي قرطبة). ولم تكن الاستعدادات الاسبانية في (المرسى الكبير) أقل مما كانت عليه في وهران وقد تولى قيادة الحامية المدافعة عن (المرسى الكبير) شقيق قائد وهران (المركيز دون مارتان) وهو ابن الكونت (د. الكوديت). وقد عمل القائدان بمجرد علمهما بتحرك المسلمين على طلب الدعم من اسبانيا التي أمدتهما على الفور بأربعة آلاف مقاتل تحت قيادة (دون خوان دي ماندوزا) لكن عاصفة بحرية قوية أعاقت تحرك هذا الدعم، وأغرقت ثلاثة أرباع الاسطول فلم يصل الى وهران اكثر من ألف مقاتل (وكان قائد الاسطول الاسباني ذاته بين الغرقى). وأثناء ذلك، كان (حسان خير الدين) قد انتهى من تنظيم قواته للمعركة. وبدأت المدفعية الجزائرية

بقصف القلاع والتحصينات دونما هوادة. ثم قامت قوات المسلمين بهجومها على (حصن القديسين) وتمكنت من احتلاله يوم (١٥) شباط ـ فبراير ـ بعد معركة حاسمة تم فيها تدمير جدران التحصينات. وأفادت قوات المسلمين من الموقع الجديد، فجعلته مربضاً لمدفعيتها، وأخذت في توجيه القصف من هذا الموقع، ومن المواقع الاخرى، نحو تحصينات (المرسى الكبير) وقلاعه. وطلب (حسان خير الدين) الى قائد حصن (القديس ميشال) الاستسلام فرفض ذلك. وعندها تولى (حسان) بنفسه قيادة مجموعة قتالية، وقام بالهجوم على الحصن، وتمكن من وضع السلالم مرتين على جدران الحصن، غير أنه أخفق في احتلاله. ودامت المعركة يوماً كاملاً، كان فيها الهجوم الجزائري عنيفاً بمقدار ما كان الدفاع عنيداً، فلم يتم حسم الصراع، وتكبد الطرفان خسائر فادحة، غير أن خسائر المسلمين كانت اكبر بحيث فقد (حسان) خيرة ضباطه ونحواً من خمسمائة من مجاهديه. وفي هذه المعركة، افتقد (حسان) أسلحته الثقيلة، إذ أن العاصفة البحرية التي دمرت الاسطول الاسباني قد أعاقت في الوقت ذاته وصول الامدادات والاسلحة الثقيلة الى جيش الجزائر. وحاول (حسان) من جديد الافادة من علاقته بابن الكونت د. الكوديت (دون مارتان)[1] وذلك لاقناعه بتسليم المدينة، غير أن قائد حامية المدينة اعتذر عن ذلك.

---

(٢١) يذكر هنا أن (دون مارتان) وقع أسيراً في معركة (مستغانم) التي قتل فيها أبوه ايضاً، فقام (حسان) بتسليم جثة الكونت د. الكويت لابنه، واطلاق سراحه حيث عاد الى وهران وتسلم قيادة حاميتها. وعندما كتب اليه حسان خير الدين طالباً اليه تسليم المدينة أجابه بما يلي: «انني مستعد لأن أفعل من اجلك كل شيء، واطيع اوامرك مهما كانت، اعترافاً، بجميلك علي، وتسليم جثة أبي إلي بعد اداء التحية العسكرية لها، أما أن أسلم إليك المدينة التي هي أمانة جلالة ملك اسبانيا في عنقي. فذلك أمر لا سبيل إليه». حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ٣٨١.

ووصل الاسطول الجزائري يوم ٤ أيار (مايو) وهو يحمل المدفعية والمواد التموينية، ونصب الجزائريون مدافعهم في مرابض مناسبة، وشرعوا بقصف تحصينات (المرسى الكبير) وقلاعه من البر والبحر. وقام المسلمون بالهجوم على القلاع خمس مرات متتالية يومي ٥ و٦ أيار (مايو) غير أن الحامية الاسبانية التي تلقت دعمًا من حامية وهران استطاعت الصمود لهذه الهجمات وتمكنت من احباطها. وفي يوم ٨ أيار(مايو) قاد حسان خير الدين الهجوم بنفسه ضد قلاع المرسى الكبير، وتمكن من رفع العلم الجزائري فوق ثغرة في مراكز الدفاع. واندفع منها الى الداخل، لكنه أصيب بجرح في رأسه، ولم يتمكن الجيش من اجتياز الثغرة، فاضطر حسان ورجاله الى الانسحاب. ووجه المسلمون بعد ذلك هجومهم إلى (حصن سان ميشال) الذي دافعت عنه الحامية الاسبانية بعناد وضراوة. غير أن نيران القوات الجزائرية أرغمتها على الانسحاب من تحصيناتها والانضمام الى الحامية المدافعة عن القلعة. ووجه المجاهدون نيران مدفعيتهم نحو جدران القلعة الرئيسية، واستمر قصفها طوال (٢٤) ساعة، وأمكن تدمير الكثير منها، غير أن رجال الحامية الاسبانية كانوا يرممون بالليل ما تحدثه مدافع المسلمين من تدمير في النهار.

وفي يوم ٩ أيار (مايو) كانت المدفعية الجزائرية قد دمرت حصون الناحية الغربية تدميراً تاماً تقريباً، فأرسل (حسان) من جديد طلباً الى (المركيز مارتان) بتسليم المدينة، فأجابه: «بما أن الحصون قد تحطمت فما الذي يمنعك عن اقتحام المدينة؟». وعندها أمر حسان بالهجوم العام، واستبسل الاسبان في الدفاع عن بقايا الحصون والجدران والخرائب، وتمكن الجزائريون خلال ذلك من احتلال حصن جنوة، ورفع أعلامهم فوق السور، لكنهم لم يستطيعوا الثبات

أمام الهجوم الاسباني المضاد فتراجعوا الى مواقعهم الاولى، بعد أن تركوا فوق أرض المعركة عدداً كبيراً من الشهداء. وتمكنت في هذا اليوم سفينة اسبانية صغيرة من اختراق صفوف الاسطول الجزائري، ونقلت الى قائد حامية وهران معلومات عن اقتراب الدعم الاسباني الذي كانت تحمله (٥٥) سفينة يتولى قيادتها (الاميرال دوريا) وأدى ذلك الى زيادة تصميم الحامية الاسبانية على الدفاع حتى النهاية. وأرسل قائد وهران مراسلاً اخترق ما بين البلدتين سباحة ـ يعلم أخاه (قائد المرسى الكبير) باقتراب وصول الدعم، ويطلب اليه المضي في المقاومة حتى وصول هذا الدعم. وعلى هذا استمرت المعركة بكل قسوتها وضراوتها طوال الفترة ما بين يوم ١١ أيار ـ مايو ـ وحتى يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ. حيث علم (حسان خير الدين) باقتراب وصول الدعم الاسباني، فقرر القيام بمعركة حاسمة، وحشد قواته، واستثار حماستها، وقذف بنفسه أمام صفوف الاعداء واندفع المجاهدون، غير أنهم اصطدموا من جديد بجدار المقاومة الضارية للاسبانيين وفشل الهجوم في الوصول الى أهدافه، وطلعت شمس يوم ٧ حزيران (يونيو) لتلقي اضواءها على الاسطول الاسباني الذي يحمل الدعم وهو يقترب من وهران. وادرك (حسان خير الدين) أن قواته التي استنزفت المعارك المستمرة قدرتها لم تعد قادرة على تطوير الاعمال القتالية، فقرر الانسحاب من المعركة. غير أن الاسطول الجزائري لم يتمكن من تجنب الاشتباك مع الاسطول الاسباني، فخاض معركة ضارية خسر فيها (٩) قطع (سفن). وانسحب بعدها الى موانئه في الجزائر

انتهت معركة (المرسى الكبير) بدون حسم، غير انها اكدت تصميم الجزائر على تحرير ترابها وتطهير أرضها من الغزاة. وما ان

عادت القوات الى الجزائر حتى وجدت نفسها أمام موقف جديد يفرض عليها العودة الى الجهاد في البحر.

كان السلطان سليمان القانونـي قد اتخذ قراره بالهجوم على جزيرة (مالطه) واحتلالها، لأنها تحولت لتكون اكبر معقل صليبي في شرق البحر الأبيض المتوسط وذلك منذ اتخذ (فرسان القديس يوحنا) منها قاعدة لهم منذ سنة (١٥٣٠م). ولهذا أرسل اسطوله بقيادة (بيالي باشا) قائد البحرية العثمانية العام (قبودان باشا) كما طلب الى (الرايس طورغود) حاكم طرابلس وجربه الانضمام باسطوله لتنفيذ العملية، وكذلك الأمر بالنسبة لوالي الجزائر (حسان خير الدين) الذي أسرع فقاد قوة بحرية تضم (٢٥) سفينة و(٣) آلاف من افضل المقاتلين. ووصل الاسطول الاسلامي بكامله الى الجزيرة يوم ١٨ أيار (مايو) سنة ١٥٦٥م، وحاصرها، ثم نزلت قوات المجاهدين، فاحتلت معقل (القديس ايلـم) بعد أن أصيب بخسائر فادحة وبعد معركة ضارية استشهد فيها عدد من المسلمين كان في مقدمتهم (الرايس طورغود)الذي وصفته المصادر الافرنجية ـ الغربية ـ (بأنه كان قائداً فذاً لا مثيل له، لانه كان يتحلى بفضائل انسانية غير معهودة في القراصنة) ـ وكان ذلك يوم ٢٣ أيار ـ مايو ـ وتوالت المعارك البطولية بين الجانبين كان من ابرزها هجوم المسلمين بقيادة حسان خير الدين يوم ١٥ تموز ـ يوليو ـ على حصن (القديس ميخائيل) وهو الهجوم الذي نجحت حامية الحصن في احباطه بعد أن تكبد الطرفان خسائر فادحة. وتبع ذلك تطور على جبهة الصليبيين حيث جهزت صقليا جيشاً تولى قيادته نائب الملك، ودعم باسطول يضم (٢٨) سفينة حربية تحمل (١٢) ألف مقاتل. وأدى وصول هذا الدعم الى تصعيد الصراع المسلح من جديد واستمرت الأعمال القتالية بدون هوادة،



رئيس بحري جزائري

وفقد الجيش الاسلامي اكثر من نصف قوته واضطرت بقية قوات الحملة للانسحاب يوم ٨ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٥٦٥م.

بقيت الجزائر المجاهدة مصدر قلق دائم لحكام اسبانيا، الذين لم يجدوا وسيلة الا اتبعوها ولا طريقة الا مارسوها لقهر تطلعات الشعب المسلم، غير أن التحديات لم تزد المقاومة الا ضراوة وعناداً. وقد يكون من المناسب الاشارة الى تلك العملية التي اخذت شكل (اغارة مباغتة) على الجزائر بهدف النيل منها، وتعود قصة هذه الاغارة الى شهر تشرين الاول اكتوبر ـ سنة (١٥٦٧م) عندما تقدم احد قراصنة البحر الاسبانيين الشهيرين (واسمه خوان قاسكون من بلسية) وقابل الملك الاسباني. وعرض عليه مشروع (اغارة) مباغتة بواسطة سفينتين فقط يتم بهما احتلال الجزائر. واعتمد مخطط الاغارة على الافادة من ظلمة الليل للتسلل الى داخل مرسى مدينة الجزائر، ثم القيام باشعال النيران في الاسطول الجزائري، والافادة من حالة الهياج التي تعقب ذلك لاقتحام المدينة واطلاق سراح الاسرى المسيحيين فيها وتسليحهم والافادة من قوتهم للاستيلاء على مدينة الجزائر وتدمير المقاومات فيها والسيطرة عليها حتى يتم وصول الاسطول الاسباني الذي يحمل الجيش والامداد. ورأى الملك الاسباني أن هذه المغامرة لن تكلفه كثيراً،فاذا ما هي نجحت،أمكن لها أن تحقق ما عجز شارلكان عن تحقيقه، وان هي فشلت، فانما هي خسارة قليلة لا تقارن بما يتوافر لها من فرص النجاح، وبالاضافة الى ذلك فانها قد تسبب ازعاجاً وخسارة للجزائر تزيد في قيمتها على الثمن أو الجهد المبذول. وهكذا خرج (خوان) من اسبانيا يوم الأول من تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ووصل الى (مرسى الجزائر) ليلاً بعد أربعة أيام، وكانت ظلمة الليل حالكة، فاستطاعت السفينتان التسلل الى



منظر من الحياة العامة بالعاصمة الجزائرية

المرسى بدون أن يشعر بوصولهما أحد. وكان الاسطول الجزائري مجمعاً في مرسى الجزائر الضيق، وقد تقاربت سفنه بعضها من بعض، بحيث كان اشعال النار في سفينتين أو ثلاث منه كافياً لاحراق الاسطول بمجموعه. وأعطى (خوان) أوامره الى ستة من رجاله باحراق السفن، بينما مضى هو وبقية الرجال الى (باب البحر) فباغت رجل الحرس الجزائري وقتله، ثم توجهت قوة الاغارة الى مكان الأسرى النصارى، يحملون معهم الأسلحة من اجل تنفيذ العملية. لكن عناصر الاغارة لم تر ألسنة اللهب المتصاعدة من سفن الاسطول الجزائري- كما كان متوقعاً. فتوقفت عن مهاجمة دار الأسرى، وعلمت أن زمرة احراق السفن لم تتمكن من تنفيذ واجبها. فاكتفت بتحرير نحواً من عشرين اسيراً نصرانياً، وانسحبت الى السفينتين، رغم معارضة قائد العملية خوان - وغادرت السفينتان المرسى وهما تستخدمان المجاذيف. وتبين عندئذ أن رجال الحرس في المرسى قد تنبهوا منذ اللحظة الاولى لحركة قوة الاغارة، فقتلوا افراد الزمرة الستة المكلفين باحراق السفن، ثم ركب الجزائريون بعض السفن، وتتبعوا رجال العصابة حتى لحقوا بهم غير بعيد عن الساحل، وأرغموهم على العودة الى الجزائر ومعهم الأسرى الذين عملوا على تحريرهم. واعيد البحارة الى سجن الاسرى أما (خوان قاسكون) فقد اقتيد الى المحاكمة، التي قررت تسليمه للشعب الهائج فتم اعدامه وعلقت جثته اياماً فوق سور المدينة، على الرغم من احتجاج رجال البحر ودفاعهم عنه باعتباره (محارباً) يجوز أسره ولا يجوز اعدامه.

* * *

حدثت خلال هذه الفترة تطورات من المناسب الاشارة اليها، فقد توفي السلطان سليمان القانوني يوم ٥ ايلول-سبتمبر-١٥٦٦ (٢٠

صفر ـ ٩٧٤هـ) وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني، الذي اسند الى حسان باشا خير الدين منصب القائد العام للاسطول الاسباني (قبودان باشا). فتوجه هذا الى استامبول خلال شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٦٧م (٩٧٤هـ) وعين السلطان مكانه في منصب (باي لرباي) الجزائر الامير محمد بن صالح رايس. وبقي حسان خير الدين في منصبه حتى توفي سنة ١٥٧٠ عن ٥٣ عاماً. ودفن الى جانب والده في مسجد (باكداش) في حي (بويوك) دارة باستانبول، وفي الجزائر، توفي محمد بن صالح رايس سنة ١٥٦٨، فتم تعيين قلج علي حاكماً عاماً (باي لرباي). وقد بذل (قلج علي) جهده ـ منذ اضطلاعه بالمسؤولية، على متابعة الجهاد ضد الاسبانيين، فكان أول عمل له تركيز الجهد لدعم ثوار المسلمين في الاندلس، ثم انقاذهم واعادتهم الى الجزائر، مع متابعة الجهاد في البحر على نحو ما سبقت الاشارة اليه.

د ـ تحرير تونس ـ ١٥٧٣م

لم تكن الجزائر المجاهدة وهي تمضي في بناء قدرتها الذاتية، وتخوض معاركها جهاداً في سبيل الله، انما تريد العزة لنفسها، وانما تريده للمسلمين كل المسلمين.

ولم تكن الامبراطورية العثمانية وهي تخوض حروبها المتواصلة تبغي العزة لنفسها وقد اصبحت تمتلك من العزة بالله ما ساعدها على نشر الويتها وبنودها فوق الشرق والغرب. ولم تكن بقية الاقطار الاسلامية وهي تقذف بنفسها في ميادين الجهاد، تبتغي العزة لنفسها أو القدرة لذاتها وانما كانت لتدعيم الاسلام والمسلمين في كل بقعة ترتفع فوقها رايات الاسلام والمسلمين.

وعلى صعيد الجهاد في سبيل الله، التقت القوات العثمانية

بالقوات الجزائرية، وبقوات المغرب العربي الاسلامي لخوض حروب الايمان.

وكان المغرب العربي الاسلامي هو الميدان الأول للجهاد. وكانت (تونس) هي الهدف المرحلي في تلك الحروب والحملات المتواصلة، التي لا تكاد تتوقف على مسرح من مسارح العمليات حتى تتفجر على مسرح آخر.

وفي تلك الفترة، كان البابا بيوس الخامس (١٥٦٦-١٥٧٢م) قد انطلق على سيرة أسلافه في تأجيج نار الحرب الصليبية، فعمل على جمع شمل البلاد الاوروبية المختلفة، وحشد قواتها في البر والبحر تحت راية البابوية للوقوف في وجه الاسلام. وتم عقد حلف كاثوليكي مقدس في كاتدرائية سان بيير (القديس بطرس) يوم ٢٥ أيار - مايو - ١٥٧٠م ليضم هذا الحلف الدويلات الايطالية والالمانية، وقوات البابا واسطوله. واخذت هذه القوى مجتمعة في الاعداد للهجوم والاستعداد له. وكان من نتيجة ذلك وقوع معركة ليبانت البحرية والتي سبق التعرض لها.

أراد الامير (جون - او يوحنا) النمساوي. استثمار النصر الذي أحرزته القوات الصليبية المتحالفة في (ليبانت - أو - ليبانتي) لغزو المغرب العربي الاسلامي، والبدء في ذلك بمدينة تونس[1]. لانتزاعها من

---

(١) كان والي الجزائر (قلج علي) قد هاجم الملك الحفصي بباجه ودمر قواته، وتقدم الى تونس ففتحت له ابوابها. ويذكر مؤرخ هذا الحدث بقوله: «وفتح أهل الحاضرة - تونس - ابوابها لعلي باشا فدخلها بمن معه، وقصد القصبة سنة ٩٧٧هـ (١٥٦٩م) ونادى في الناس بالامان، فاجتمع اليه وجوه البلد وأخذ عليهم البيعة للسلطان سليم العثماني، وجهر الخطباء بالدعاء له على المنابر، وضربت السكة باسمه، ولما استقرت قدمه جاءه=

قبضة العثمانيين ،للانتقال منها بعد ذلك الى الجزائر. وغادر الاسطول الصليبي جزيرة صقليا في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر ـ من سنة (١٥٧٣م) وقد ضم الاسطول (١٣٨) سفينة تحمل (٢٥) ألفاً من المقاتلين. ونزل بقلعة (حلق الوادي)، وجاء الامير النمساوي بالملك الحفصي (أبـي العباس أحمد) الذي التجأ الى الاسبان من أجل مساعدته على استرداد ملكه، بشرط أن يكون الحكم مناصفه بين الاسبان وبين (أحمد الحفصي). غير أن هذا رفض مشاركة الصليبيين في حكم بلاده، وتنازل عن حقه في الملك لأخيه (محمد بن الحسن) ودخل الاسبان مدينة تونس التي لم يكن بها يومئذ حامية كافية للدفاع عنها، وخرج أهلها للنجاة بأنفسهم وبدينهم، ويصف مؤرخ عربـي الموقف في تونس بما يلي: «ولاذ ـ أهل تونس ـ بالبوادي ونالهم من الجوع والعطش وكشف الستر وتشتيت الشمل ما هو مبسوط في كتب التاريخ، مما تقشعر منه الجلود... ودخل محمد بن الحسن الى القصبة. وشاطره قائد الجيش الصبنيول في الحكم. وعاش عسكره في البلاد، وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة، واستباحوا ما به، وما بالمدارس العلمية من الكتب، وألقوا بها في الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم، وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فانها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة».

= فرسان الزمامرة (من جيش السلطان الحفصي) وقالوا له: نحن خدام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مرد لحكم الله، فان شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وان شئتم ننصرف، وأرض الله واسعة، فقال لهم علي باشا: لقد فعلتم ما وجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم، فانتم الآن من جماعتنا» ثم ترك علي باشا جماعة من جيشه لحماية مدينة تونس. ومحاصرة قلعة حلق الوادي التي كانت لا تزال بيد الاسبان. ورجع تواً الى الجزائر ليجهز اسطوله للاشتراك في معركة ليبانت. (حرب الثلاثمائة سنة ـ احمد توفيق المدني ـ ص ٣٩٧).

وبينما كانت (تونس) تعيش أقسى ظروف محنتها، ظهرت طلائع الاسطول العثمانـي بقيادة حاكم الجزائر (باي لرباي) والذي كان يمارس في الوقت ذاته قيادة الاسطول (قبودان باشا). وقام (قلج علي) بانزال قوات المجاهدين على مقربة من أطلال (قرطاجنة) تحت قيادة (سنان باشا) وأصدر أوامره في الوقت ذاته الى جيش الجزائر بالتحرك فوراً تحت قيادة (عرب أحمد). كما أرسل الى جيش طرابلس يستدعيه بقيادة (مصطفى باشا) وجيش القيروان بقيادة (حيدر باشا) وكان أول عمل قامت به قوات المسلمين بقيادة (قلج علي باشا) هو تضييق الحصار على (حلق الوادي) وتركيز الاعمال القتالية حتى أمكن اقتحام مواقعه وابادة الحامية الاسبانية والاستيلاء على كل ما كانت تحتويه من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية (وذلك لست خلون من جمادي الاولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ـ١٥٧٣م). ونقل المسلمون بعد ذلك ثقل عملياتهم القتالية لحصار تونس، ففر من بها من الاسبانيين ومعهم محمد بن الحسن الحفصي الى (البستيون) (وهي قلعة بناها الاسبانيون الى جانب تونس) واستولى المجاهدون على الحاضرة وقصبتها، ثم نقلوا ثقل الهجوم الى حصن (البستيون) واحكموا الحصار على حاميته. وتولى الوزير سنان باشا قيادة الحصار بنفسه، وشارك المجاهدين في اعمال ردم الخنادق وبناء ابراج الحصار (فكان ينقل التراب والحجارة، مثله كمثل كل المجاهدين، وعندما قال له أحد أمراء الجند: «ايها الوزير! نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك» اجابه الوزير: «لا تحرمني من الثواب». وأمر ببناء (ترس) يشرف منه على قتال الاسبانيين في (البستيون). ولم يزل ملحاً على حصار هذا الحصن حتى تم اقتحامه عنوة يوم الخميس (لخمس بقين من جمادي الاولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائةـ١٥٧٣م) ومضت جموع المجاهدين لخوض المعركة الحاسمة، فابادت الحامية الاسبانية

والقوات التي انضمت اليها من الصليبيين، ومات من الفريقين المتصارعين ما يزيد على العشرين الفاً. وسقط محمد بن الحسن الحفصي أسيراً. فأرسله سنان باشا الى استانبول حيث قضى نحبه. وانقرضت بهذه الموقعة دولة (بني حفص) بعد أن حكمت البلاد التونسية والكثير من بلاد الجزائر الشرقية لمدة تزيد على الثلاثمائة والسبعين سنة، كانت في أولها وفي وسطها منار علم وحضارة أضاءت لها سماء المغرب العربي الاسلامي. واسدل بذلك الستار نهائياً على المطامع الاسبانية في مشرق المغرب العربي - الاسلامي، ولم يبق لها بالمغرب الاوسط الا مدينة وهران ومرساها الكبير. أما في المغرب الاقصى، فكانت الاحداث تتمخض عن صراع مرير انتهى (بمعركة الملوك الثلاثة، أو معركة القصر الكبير) والتي ادت بدورها الى انهيار المطامع البرتغالية الى الابد.

يذكر هنا أن الانتصارات التي احرزها المجاهدون في المغرب العربي الاسلامي، قد حملت الحكم الاسباني على البحث عن وسيلة تضمن لها الاحتفاظ بمواقعها في (وهران والمرسى الكبير) وذلك عن طريق صلح تعقده مع السلطان (مراد الثالث). غير أن حاكم الجزائر والقائد العام للاسطول الاسلامي (قبودان باشا قلج علي) تصدى لهذه المحاولة، وتمكن من اقناع السلطان العثماني بنظريته القائلة: «بأنه ما من صلح مع اسبانيا حتى يتم اجلاء الاسبانيين عن المواقع التي تحتلها في المغرب العربي- الاسلامي» وفشلت محاولة اسبانيا. واكدت الجزائر المجاهدة أنها مصممة على متابعة الجهاد حتى يتم لها النصر الكامل على الاعداء.

هـ- انتصار المجاهدين في أصيلا (المغرب) (١٥٧٥ م)

كان الملك السعدي (الشريف الغالب بالله) قد سلم (حجر

باديس ـ أو قلعة فاليس» للاسبانيين، وذلك (وفقاً لما ذكره المؤرخون العرب) : «لأن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ـ اسطول ـ الاتراك والجزائريين لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة ـ يعني البوغاز ـ وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية الاسباني، على أن يعطيه حجر باديس، ويخليها لهم من المسلمين. فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلاً اليه، فنزل النصارى على حجر باديس، وأخرجوا المسلمين منها، ونبشوا قبور الأموات وحرقوها، وأهانوا المسلمين كل اهانة ولما بلغ خبر نزوهم عليها لولده محمد. وكان خليفته على فاس، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين، فلما كان بوادي اللبن، بلغه استيلاؤهم عليها، فرجع وتركها لهم».

وتوفي الملك السعدي الغالب بمدينة مراكش سنة (٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م) وخلفه ابنه محمد المتوكل، غير أن الشيخ (عبد الملك ابن الشيخ السعدي ـ أخا الغالب) لم يعترف بالملك لابن أخيه (محمد) وطالب بالعرش لنفسه، وغادر البلاد الى استانبول يستنجد السلطان العثماني (مراد الثالث) ويعترف له بالخلافة، ويلتزم بالدعاء له فوق المنابر، اذا ما هو استقر على عرش السعديين. ولم يكتف الشريف عبد الملك بهذا الوعد، بل انضم الى الجيش العثماني الذي ذهب مجاهداً لانقاذ تونس على رأس جماعة من أنصاره. وعلى اثر ذلك طلب السلطان (مراد الثالث) الى والي الجزائر (القائد رمضان الذي خلف قلج علي) تجهيز جيش الدولة الجزائرية، واقتحام حدود الدولة المغربية، ودعم الشريف عبد الملك الذي كان قد دخل البلاد ـ بصورة سرية ـ وأخذ في استثارة أنصاره، واستنفار القبائل من أجل دعم دعوته.

ما ان انتهى القائد رمضان من تجهيز جيش الجزائر حتى توجه

الى مدينة (فاس) في سنة ٩٨٣ هـ = ١٥٧٥ م. وضم جيشه البالغ عدده خمسة آلاف رجل الى قوى (الشريف عبد الملك) ثم صادموا معاً جيش السلطان محمد السعدي في مكان يقال له (الركن - ببلاد بني وارتين) فاندحر أمامهم ولحقت به هزيمة منكرة، لأن جماعة الاندلسيين الذين كانوا معه، قد انقلبوا عليه عندما رأوا جماعة الاندلسيين والاتراك يقاتلون مع خصمه، فانضموا اليهم. ودخل الشريف عبد الملك مدينة (فاس) وبويع بها سلطاناً على المغرب. ثم انه دفع للقائد (رمضان) مصاريف الحملة التي كان قد اقترضها من حكومة الجزائر (وهي ٥٠ ألف أوقية من الذهب) وأفاض على جيش الجزائر وقادته بالتحف والهدايا الثمينة ومدافع كثيرة. ثم اعادهم الى الجزائر وخرج لوداعهم بنفسه.

مضى السلطان المعزول (محمد المتوكل) الى مراكش، واستقر بها، وما لبث بها الا قليلاً حتى تتبعه خصمه، وهزمه من جديد، واستولى على مراكش، فأمكن له توحيد المغرب الاقصى تحت حكمه. ونفذ ما وعد به السلطان العثماني. واكد اعترافه بخلافته، ودعا له فوق منابر المغرب. وبذلك امتدت حدود الخلافة العثمانية (في سنة ١٥٧٤) من دجلة شرقاً وعدن واليمن جنوباً الى المحيط الأطلسي. علاوة على بلاد الترك والبلاد الاوروبية التي اخضعت لحكم الامبراطورية الاسلامية.

لم يقنع السلطان المعزول (محمد المتوكل) بما نزل من الهزائم، فمضى يستثير الاعداء، وتوجه بحراً الى اسبانيا يطلب الى ملكها الدعم والامداد لاستعادة عرشه المفقود، ولاخراج المغرب الاقصى من دائرة نفوذ الاتراك العثمانيين. غير ان اسبانيا لم تكن يومئذ على استعداد للقيام بمغامرة جديدة، لا سيما وأن المغرب الأقصى كان

منطقة نفوذ لاستعمار البرتغال وفقاً للاتفاقات بين البرتغال واسبانيا، فمضى (محمد المتوكل) الى عاصمة البرتغال (لشبونه) حيث اجتمع بالملك (سباستيان)[1] وعقد معه معاهدة تقضي بتنازله للبرتغاليين عن سواحل المغرب الغربية، وأن يحكم بقية البلاد الداخلية معترفاً بسلطانهم وذلك مقابل امدادهم له بقوة عسكرية، تبعد عمه عن العرش وتعيده اليه. وجهز (سباستيان) حملة قوية تضم (٤٢) ألف مقاتل (ولم يكن جيش محمد المتوكل حليف سباستيان يزيد على ثلاثمائة رجل).

علم السلطان عبد الملك بتحرك البرتغاليين، وأعلم العلماء والشيوخ الذين استنفروا المقاتلين للجهاد فأقبلت جموعهم من كل انحاء ألمغرب الأقصى، واتجهت الى نواحي مدينة (أصيلا) على المحيط الأطلسي. حيث انزل البرتغاليون قواتهم في شهر حزيران (يونيو) ١٥٧٨و وتمكنوا من الأرض وتحصنوا بها، واستعدوا للقتال على مقربة من (القصر الكبير). واستطاع (السلطان عبد الملك) تنظيم جموع المجاهدين الذين بلغ عددهم (٤٠) ألف مجاهد. والتقى الجمعان يوم الاثنين ٣٠ جمادي الاولى سنة ٩٨٦ هـ (الموافق ٤ آب أغسطس ـ ١٥٧٨ م) على (وادي المخازن) ودارت رحى معركة طاحنة، أظهر فيها الطرفان المتصارعان قدراً غير قليل من التصميم على انتزاع النصر. غير أن تصميم المجاهدين في سبيل الله كان اكبر، فأمكن لهم سحق البرتغاليين، ولم تغرب الشمس حتى كان جيش الغزو قد أبيد ابادة شبه كاملة بحيث كان عدد الأسرى قليلاً جداً،

---

(١) سباستيان: (SEBASTIEN) (ملك البرتغال في الفترة ١٥٥٧ ١٥٧٨م) وهو من مواليد لشبونه ١٥٥٤م وقتل في معركة القصر الكبير: ALCAZARQUIVIR أو KASR EL KEBIR أثنا قتاله لابناء المغرب.



من ضباط الجيش العثماني بالجزائر

ولقي الملوك الثلاثة قادة المعركة حتفهم، فكان السلطان عبد الملك أول شهيد فيها، غير أن حاجبه المملوك (رضوان العلج) أخفى خبر وفاته وقاد المعركة باسمه الى أن تم النصر وعندئذ أعلن على الناس الخبر المحزن. وقتل الملك (سباستيان) غرقاً وهو منهزم في وادي المخازن. وحاول (محمد المتوكل) النجاة بنفسه بعد أن شهد الدائرة وهي تدور على حلفائه، فخاض نهر المخازن في محاولة للفرار بعيداً عن المعركة، فابتلعته مياه النهر.

وبايع الناس يومئذ في اجماع رائع، شقيق عبد الملك (الأمير أحمد) والذي لقب فيها بعد بالمنصور، وكان اكبر معين لشقيقه الشهيد، فبادر بمراسلة ملوك المسلمين وعظمائهم واعلمهم بالنصر العظيم .وتلقى منهم التهاني ،وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر، وأرسل له (السلطان مراد) هدية، فاستقلها ولم يعبأ بها، وقطع الخطبة للخليفة العثماني، ثم توالت الرسائل بين السلطانين فتصالحا واستقر الأمر للخلافة السعدية على أرض المغرب الأقصى.

تمخضت هذه الاحداث التي انتهت بانتهاء القرن السادس عشر، عن مجموعة من المتحولات ابرزها:

١ـ فشلت الصليبية الاسبانية فشلاً تاماً في تحقيق اهدافها على أرض المغرب العربي الاسلامي ولم يبق لها بعد توسعها الكبير الا (قاعدة وهران ومرساها الكبير).

٢ـ استقرار سلطنة الاشراف السعديين في المغرب الأقصى بصورة ثابتة ووطيدة. وظهور كيان دولة الجزائر كدولة مستقلة خاضعة اسمياً للامبراطورية العثمانية، شأنها في ذلك شأن تونس وطرابلس ومصر وبقية بلاد العرب والترك، ولو أن الجزائر تمتعت

بدور ريادي في الجهاد اتاح لها قدراً كبيراً من حرية العمل السياسي والعسكري.

٣ـ فقد المسلمون كل قدرة على استرداد الفردوس المفقود في الاندلس. وتوقفت تقريباً الفتوح الاسلامية في اوروبا بسبب تعاظم المقاومة وتنظيمها ضد سلطان المسلمين.

٤ـ انصرفت الدول الاوروبية لمعالجة مشكلاتها الخاصة في حروب اهلية لم تتوقف، مما اتاح لدول المسلمين نوعاً من الهدوء النسبي. غير أن الصراع لم يتوقف.



من قادة الجيش العثماني بالجزائر

٢ ـ انكلترا تشن الحرب على الجزائر

(١٦٢٠ م)

أفادت الجزائر المجاهدة من فترات الهدوء النسبي لاعادة تنظيم أمورها داخلياً وخارجياً. فقد توفي (قلج علي) سنة (١٥٨٧م) وانتهى بموته نظام (الباي لرباي). وأعقب ذلك نظام الباشوات (الثلاثيين) الذين يعينهم الخليفة العثماني لمدة ثلاثة أعوام. واستمر هذا النظام من سنة **١٥٨٧**ـ حتى سنة **١٦٥٩**م. ثم جاء نظام (آغة الهلاليين) الذي هو نوع من (الحكم العسكري الجماعي) الذي يؤلف (الديوان) والذي يحكم البلاد، ويسند الرئاسة التنفيذية لكبير الضباط الذي يدعى (الآغا) وذلك لمدة شهرين فقط ثم يتولاها غيره تحت رعاية (الباشا) الذي ترسله استانبول من قبلها ممثلاً للامبراطور العثماني (الخليفة) وليس له مطلقاً التدخل في شؤون البلاد الداخلية. واستمر هذا النظام من سنة **١٦٥٩** ـحتى سنة **١٦٧١**م. واخيراً جاء نظام (الديوان ـوالباي) الذي استمر (١٦٠ عاماً) أي من سنة (**١٦٧١ـ١٨٣٠**) عندما دخلت فرنسا الجزائر. وكان (الديوان العسكري) في هذه الفترة هو السلطة العليا: يعلن الحرب ويعقد معاهدات السلام. ويعين موظفي الدولة، ويحدد العلاقات بين دولة الجزائر والدولة العثمانية وبقية الدول. وهذا الديوان هو الذي ينتخب رئيس الدولة الذي يدعى (الداي) باللغة التركية، وله معنيان (الزعيم

والخال). فالداي هو رئيس الهيئة التنفيذية، وإلى جانبه مجلس وزراء يضم خمسة رجال وينتخب لمدة العمر. وكانت السلطة القضائية، مستقلة تمام الاستقلال عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، يتولى أمرها القضاة تحت إشراف المجلس التشريعي، أما النظام الداخلي (نظام البايات وشيوخ الوطن) فلم يتغير. في الوقت ذاته، انصرفت الجزائر لمتابعة الجهاد في البحر، ولم تلبث أعمال القتال (التي تحولت الى حرب منظمة ـ والتي أطلق عليها اسم القرصنة) أن أصبحت المورد الرئيسي ـ الاقتصادي للجزائر. وكانت أعمال القرصنة من الامور المتعارف عليها، وكانت انكلترا ـ بعد اسبانيا والبرتغال ـ من الدول التي تشجع على القرصنة، غير ان الجزائر افادت من موقعها، ومما توافر لها من القدرات لتطوير أعمال الجهاد في البحر، فغنم الجزائريون خلال حروبهم البحرية مع اوروبا اكثر من ثمانمائة سفينة محملة في الفترة من سنة ١٦١٣ حتى سنة ١٦٢١ (أي بمعدل مائة سفينة في السنة) وهذا تفصيلها: (٤٤٧ سفينة هولاندية و ١٩٣ سفينة إفرنسية و ١٢٠ سفينة اسبانية و ٦٠ سفينة انكليزية و ٥٦ سفينة ألمانية) هذا بالاضافة الى السفن الصغيرة التي كان المجاهدون الجزائريون يغنمونها أثناء اغاراتهم المتواصلة على السواحل الاسبانية، والسواحل الايطالية. فكانت منازل مدينة الجزائر ومخازنها المخصصة لايواء الاسرى المسيحيين في انتظار افتدائهم تضم اكثر من ثلاثين ألف أسير يعودون إلى جنسيات مختلفة. وكان الاسطول الجزائري المحارب يتكون خلال تلك الفترة من مائة سفينة، وكان عدد رجال البحر من الجزائريين يبلغ الثلاثين ألف رجل.

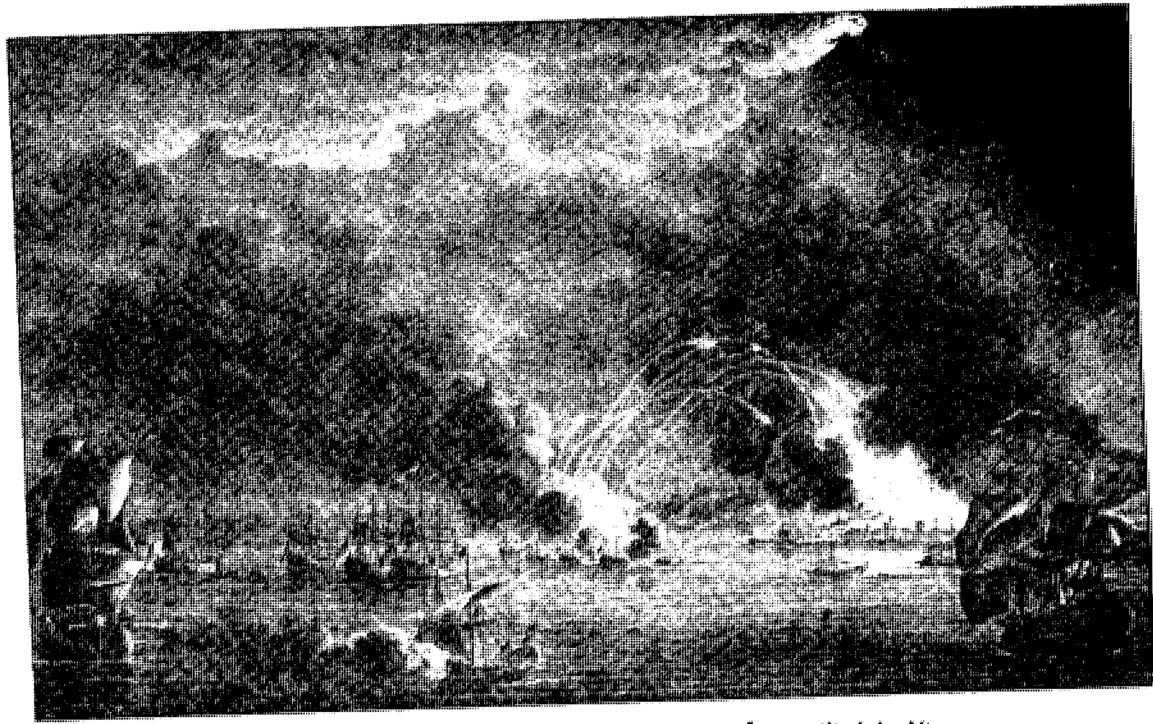
كانت انكلترا أقل الدول البحرية تأثراً بالصراع البحري، ولم تكن تجارتها بعد قد تطورت مع الشرق، غير أنها أخذت في عهد (جاك

الأول)[1] باعطاء مزيد من الاهتمام بعالم البحر، لا سيما وأنها لمست ما حققته اسبانيا والبرتغال من مغانم عبر غزواتها البحرية، فكان أن أطلق (جاك الاول) حرية العمل لقراصنته الذين حققوا أرباحاً خيالية من خلال هجماتهم على السفن التجارية الاسبانية والبرتغالية. وفي سنة (١٦٢٠م) أراد (جاك الاول) ارغام دولة الجزائر على ايقاف الحرب البحرية ضد السفن الانكليزية، دون أن يعقد معاهدة مع الجزائر يسود بواسطتها السلام. وجاء الاسطول الانكليزي الى الجزائر، تحت قيادة الاميرال مانسل، وكان يحمل الفاً وخمسمائة رجل من المقاتلين، وطالب الجزائريين بتسليمه ما لديهم من اسرى الانكليز، فرفضوا الاذعان لذلك الانذار، وأخذ الاسطول يرمي القنابل على المرسى، وحاول أخذ سفن من أسطول الجزائر، فلم يقدر على ذلك. وأنزل رجاله حوالي المدينة قصد ارهاب الجزائريين، فما استطاعوا أن ينالوا منهم منالاً، ورجعوا الى سفنهم، ثم أقلعوا الى بلادهم دون طائل.

وتكررت بعد ذلك عمليات الصراع في البحر مع السفن الانكليزية، وكانت هذه العمليات الكثيرة والمتنوعة تدخل في اطار (أعمال القرصنة) باكثر مما تدخل في اطار (الاعمال العدوانية ضد الجزائر).

---

(١) جاك الأول: (JACQUES Ier) وهو جاك السادس (JACQUES VI D'ECOSSE) ابن ماري استيوارت الاولى. ولد في ادنبرة سنة (١٥٦٦م) واصبح ملك ايقوسيا سنة (١٥٦٧م) تحت الوصاية، وأصبح ملكاً لانكلترا (١٦٠٣-١٦٢٥م). اشتهر بحروبه الدينية.



الاسطول الفرنسي تحت امرة دوكين يرمي القذائف على مدينة الجزائر

٣ـ الاعمال العدوانية الإفرنسية

(١٦٦٤ و ١٦٨٢ م)

اتخذت فرنسا سياسة ثابتة ضد اسبانيا واوروبا، ودفعها ذلك إلى التحالف مع الامبراطورية العثمانية في مناسبات كثيرة، وقد أرادت فرنسا استثمار هذا التحالف إلى ابعد الحدود، من أجل الحصول على امتيازات خاصة في المجالات التجارية مع كل دول الخلافة الاسلامية. ووافقت استانبول على منح فرنسا (امتيازات قنصلية). ورغبت فرنسا الافادة من هذه الامتيازات لارغام الجزائر على التعامل معها بموجبها. غير أن الجزائر رفضت باستمرار الاعتراف لفرنسا بهذا الحق، وصممت على التعامل معها كدولة أجنبية في مجال التجارة، كما في مجال صيد المرجان على السواحل الجزائرية، حيث كانت هذه المجالات تنفتح في ايام السلم لتتوقف في ايام الحرب. وعندما تولى الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٨ـ١٧١٥م) حكم فرنسا وانصرف لبناء عظمة بلاده، خاض مجموعة من الحروب ضد اسبانيا خاصة، وضد كل الدول المتحالفة معها. وفي اطار بناء عظمة فرنسا ايضاً، أراد لويس الرابع عشر ارغام الجزائريين على الالتزام (بالامتيازات الخاصة لفرنسا في المجال التجاري) و(ايقاف اعمال القرصنة ضد السفن الإفرنسية فجهز حملة بحرية قوية واجبها احتلال موقع ممتاز على الساحل الجزائري واتخاذه قاعدة تضمن حقوق فرنسا

المزعومة من جهة، وتساعد على التوسع الفرنسي فيما بعد.

آ- الحملة على جيجل (١٦٦٤)

غادر الاسطول الافرنسي قاعدة طولون في ٢ تموز-يوليو- ١٦٦٤م، وكان هذا الاسطول يتكون من (٨٣) سفينة بقيادة الاميرالان (بول ودوكين) أما القوة العسكرية التي حملها الاسطول فتكونت من (٨) آلاف مقاتل بقيادة (الكونت قاداني) وتولى القيادة العامة لهذه الحملة (الدوق دوبوفور).

توجهت الحملة الإفرنسية الى جزائر الباليئار حيث انضمت اليها سبع سفن من اسطول مالطا. وتابعت بعد ذلك تحركها حتى وصلت الى أمام (جيجل) يوم ٢٢ تموز-يوليو-. واشتبكت في اليوم التالي مع حامية المدينة بمعركة قاسية تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة. غير أن القوات الإفرنسية نجحت في احتلال المدينة في اليوم ذاته. وشرعت على الفور بتحصين جيجل والاستعداد للدفاع عنها. وما ان بلغت انباء سقوط (جيجل) في قبضة القوات الإفرنسية المسؤولين في الجزائر حتى أعلن الحاكم (شعبان آغا) التعبئة العامة، واستنفر المجاهدين الذين استجابوا بسرعة لنداء الجهاد. وتحرك (شعبان) بقواته نحو جيجل وقد اصطحب مدفعيته القوية، وأخذت جموع المجاهدين في الالتحاق تباعاً بجيش الجزائر فترفده بالمزيد من القوة والقدرة، وفي يوم ٥ تشرين الاول- اكتوبر- وصل جيش الجزائر الى المدينة، وأقام مخيمه على مسافة قريبة منها. واختار لمدفعيته المرابض المناسبة على المرتفعات، وشرع في تضييق الحصار على (جيجل).

وفي يوم ٢٥ تشرين الاول-اكتوبر- شرعت المدفعية الجزائرية بتركيز نيران مدفعيتها الكثيفة ضد الاهداف المعادية التي تم اختيارها

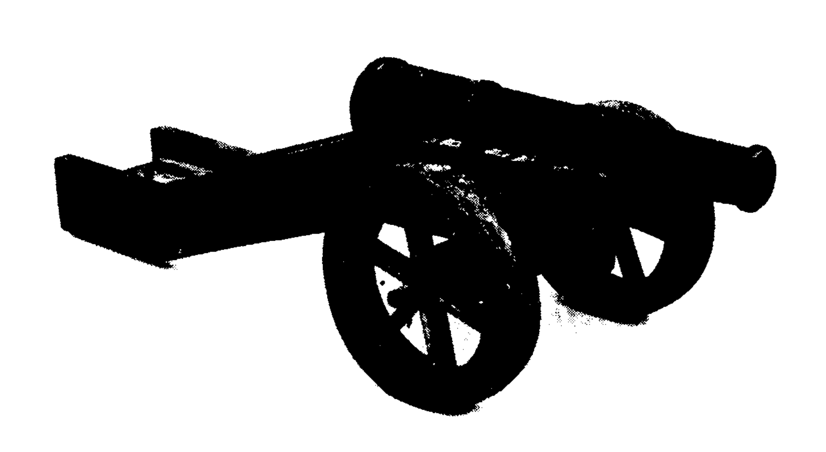
بكفاءة عالية. فأوقعت بالقوات الإفرنسية خسائر فادحة. وأدركت قيادة القوات الإفرنسية أنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة والتعرض للمزيد من الخسائر، فقررت الانسحاب، وبدأت بتنفيذ ذلك تحت قصف المدفعية الجزائرية وتحت ضغط القوات المتعاظم (في يوم ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر). وقد تم في البداية نقل (١٢٠٠) جريح الى السفن، ثم سحبت بقية القوات الإفرنسية التي تركت فوق أرض المعركة اكثر من ألفي قتيل. وقامت القوات الجزائرية بممارسة ضغط قوي حتى أمكن لها ارغام الإفرنسيين على ترك مدفعيتهم وأسلحتهم وأمتعتهم فوق ميدان المعركة (وكان من بينها مائة مدفع). وزاد من فداحة الكارثة بالنسبة للقوات الإفرنسية غرق سفينتهم (القمر ـ لالون)والتي كانت تحمل ألف ومائتي مقاتل غرقوا جميعاً مع سفينتهم أثناء تنفيذ عملية الانسحاب.

ب ـ الاغارة على الجزائر (١٦٨٢ م)

أدى فشل هذه العملية الى تصعيد الصراع ضد فرنسا، التي قررت تنفيذ عملية انتقامية ضد الجزائر عهدت بتنفيذها لقوة من (٣٦) سفينة حربية تولى قيادتها الاميرال (دوكين).

وغادرت هذه القوة الموانىء الفرنسية يوم ١٢ تموز ـ يوليو ـ (سنة ١٦٨٢) فوصلت الى المياه الاقليمية لمدينة (شرشال) يوم ٢٥ من الشهر ذاته، وشرعت على الفور بقذف قنابلها على شرشال، غير أن هذه القنابل لم تحدث خسائر تذكر، باستثناء سفينتين جزائريتين تم اغراقهما في الخليج. وانتقل الاسطول بعد ذلك الى الجزائر، فوصل مياهها الاقليمية يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ وأخذ بتنفيذ (تظاهرة قوة) رافقها ارسال إنذار للجزائر من اجل قبول المطالب الإفرنسية، غير ان الجزائر

رفضت الانذار، فأخذ الاسطول في قذف قنابله على المدينة يوم ٢٦ آب ـ أغسطس ـ فتم ارسال (٨٦) قذيفة، وتجددت عملية قذف المدينة ليلة (٣١ آب ـ أغسطس) حيث تم قذف (١١٤) قذيفة لم تحدث بمجموعها اكثر من خسائر طفيفة بسبب اجراء القصف من مسافة بعيدة، وتجنب الاسطول الإفرنسي الاقتراب لتجنب رمايات مدفعية القلاع الجزائرية. واستمرت اعمال القصف حتى يوم ١٢ (ايلول ـ سبتمبر) حيث عاد الاسطول الإفرنسي الى قواعده بعد أن أدرك عقم محاولاته في تليين إرادة الجزائر المجاهدة.



٤ـ القتال حول وهران ـ وتحريرها

(١٧٠٥ ـ ١٧٠٨ م)

لم تتوافر الراحة للاسبانيين طوال اقامتهم في وهران، ولا عرفوا للاستقرار سبيلاً، فقد أخذ العرب المسلمون على انفسهم عهداً ألا يتركوا للغزاة فرصة الا وافادوا منها للاشتباك معهم، فكانت هناك مجموعة من الوقائع والأيام التي يصعب حصرها. ولعل ما تركه الادباء والشعراء من شواهد التحريض على الجهاد، واستثارة الحكام لتحرير هذا الموقع من أيدي الاعداء، هو أمر كاف للتأكيد على نقطتين اساسيتين، هما:

١ـ الدور الكبير لجماهير الشعب المسلم في ارغام الحكام على الاستعداد الدائم للقتال.

٢ـ التصميم العنيد على تطهير أرض المسلمين من اعداء المسلمين، مهما طال أمد الاحتلال، والثقة غير المحدودة بحتمية النصر النهائي على الاعداء مهما طال أمد الصراع ومهما تخللته من هزائم او انتكاسات[١].

يذكر في هذا المجال ـ وفي معرض تاريخ تلك الوقائع والايام ـ ما

---

(١) انظر في نهاية الكتاب ـ قراءات ١ ـ والتي تتضمن مقولات شعرية خلال مرحلتي التحريض لتحرير (وهران) ثم تمجيد هذا الفتح العظيم بعد حدوثه.

قام به حاكم وهران الاسباني (دون انيقو دي طوليدو) يوم خرج من وهران في **شهر حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٦٧٥** في محاولة للقيام بهجوم مباغت على تلمسان، غير أن الجماهير المسلمة اليقظة دوماً، وقوات الجيش الجزائري المستعدة ابداً للقتال. سرعان ما أحبطت هذه المحاولة، وارغمت القوات الاسبانية على التراجع الى (وهران) بعد أن تكبدت خسائر فادحة. واعقب ذلك حصار المدينة، وقصفها بالمدفعية، غير أن القوات المسلمة لم تتمكن من اقتحام (وهران) وتحريرها.

(وفي سنة ١٠٩٨ هـ= ١٦٨٦م) قاد حاكم الجزائر جيشاً يضم (٣) آلاف فارس وألفاً من المشاة تدعمهم المدفعية بهدف فتح (وهران) التي خرج حاكمها الاسباني ومعه (٨) آلاف مقاتل تدعمهم جماعة من (عرب بني عامر وجيزة). ووقع الصدام بين القوتين عند (كدية الخيار) ودارت معركة ضارية قتل فيها حاكم الجزائر (شعبان باي الزناكي) وهو يحرض المؤمنين على القتال. غير أن قوات المسلمين أرغمت القوات الاسبانية على التراجع بعد أن تركت فوق أرض المعركة (١١٠٠) قتيل. واحكم المسلمون الحصار حول المدينة. ولم يتركوا لحاميتها فرصة لمغادرتها أو الخروج منها.

(وفي السنة التالية (١٦٨٧م) قاد والي الجزائر الجديد (الباي ابراهيم خوجه) جيش الجزائر وضيق الحصار على (وهران) ونصب المدافع المختلفة في مواجهة حصونها. لكن التهديد الإفرنسي لمدينة الجزائر، وتضييق الحصار عليها، أرغم جيش الجزائر على رفع الحصار والعودة لمجابهة التهديد الإفرنسي.

عاد الاسبانيون للهجوم في سنة (١٧٠٤م) فغادروا تحصيناتهم

واسوارهم، واغاروا على المداشر والقرى العربية، ثم رجعوا الى أسوارهم بعد أن اصطحبوا معهم (٢٥٠) أسيراً عربياً.

تعاظمت التحديات الاسبانية، وتعاظمت بالمقابل مقاومة الجزائريين، حتى اذا ما جاء (محمد بكداش)[١] والياً على الجزائر، أخذ على عاتقه قضية تحرير (وهران)[٢] ودعمه في ذلك (باي المغرب مصطفى المسراتـي - المشهور بلقب - بوشلاغم) وصهره ووزيره (اوزن حسن - أي حسن الطويل).

جاء (محمد بكداش) والياً على الجزائر سنة (١١١٩ هـ = ١٧٠٧ م) فكان أول ما عمله هو توحيد الجبهة الداخلية - بحسب الاصطلاح الحديث - وائتلاف قلوب الناس باشاعة العدل ونفي المظالم وشاع في الناس عزمه على الجهاد، فأخذ القوم يستعدون لليوم العظيم استعداداً لم يسبقه مثيل، وأرسلوا الى كل الجهات الجزائرية يستحثون القوم على الجهاد.

ووصف مؤرخ عاصر الاحداث وعاينها ما حدث بالتالي:

---

(١) محمد بكداش، ابن السيد المرتضى المرابط الناسك الصوفي، بسماه (بكداش) بلسان بلده التركي، وتفسيره باللغة العربية - الحجر القاسي - كان من اعظم ولاة الجزائر بعد عروج وأخيه خير الدين بربروس، استطاع أن يوحد الشعب الجزائري حول هدف الجهاد. وجمع حوله العلماء والادباء. وقد حفظت الأوابد كثيرا مما قيل في مدحه والاشادة بمنجزاته.

(٢) جدير بالذكر ان (وهران) تمكنت تحت حكم الاسبانيين أن تفرض سيطرتها على (٨٩) كيلو متراً مما يحيط بها من المناطق، وأخضعت القبائل التي كانت مستوطنة في هذه المناطق فكانوا يدفعون لها جزية سنوية يدعونها (الرومية) كما كان شيوخ هذه القبائل يقدمون مع الجزية رهائن من أبنائهم أو اقربائهم تحتفظ بهم السلطات الاسبانية في وهران لضمان ولائهم.

«وجاء الناس اليه من كل فج عميق، وانسلوا اليه من كل قبيل وفريق، زيادة على من عينه السلطان لذلك من عساكره، حتى ان الناس وفدوا اليه بخيامهم وعيالهم واعتكفوا عليه الليالي والأيـام، ورفضوا كل شيء سواه في ذلك المقام، وأنفقوا عليه الطارف والتالد، واستطابوا لأجـله الحر والبارد. . . وكان طلبة العلم وحملة القرآن، هم أشد الناس مسارعة لاجابة دعوة السلطان الى هذا الجهاد المبارك. . . وكانوا بمحلة مستقلة عن غيرها ـ».

«وبينما كانت جموع المجاهدين من رجال الشعب المجاهد، تتسارع الى موطن الجهاد، ارسـل محمد بكداش جيشاً جزائرياً من ثمانية آلاف وخمسمائة رجل مع سلاح كثير ومدفعية ضخمة وكميات هائلة من البارود ـ حتى كان ما أخرجه على يد خليفته القائد مصطفى المسراتـي نحو الثلاثة آلاف وثلاثمائة قنطار». وعندما التأم شمل المجاهدين من رجال الجزائر ومن جماعات المتطوعين. بدأوا بمنازلة (وهران) والتضييق عليها، وتولى (اوزون حسن) القيادة العليا، في حين اسندت ادارة العمليات الى (الباي مصطفى بوشلاغم). في حين بقي (محمد بكداش) في الجزائر، ينظم القوات، ويرسل الدعم تلو الدعم. فيما كان رجال الدين والأئمة في المساجد يذكون نيران الايمان في القلوب، ويدفعون بالناس الى ساحات الشرف. ومقابل ذلك، فما ان علم الصليبيون بنوايا المسلمين، حتى ارسلوا دعمًا سريعاً من مالطا! يتكون من سبع سفن تحمل على متنها عدداً من أشد المقاتلين وبعض مئات من المتطوعين الإفرنسيين. فحل هذا الدعم بمرسى وهران، وزاد من تصميم حاميتها الاسبانية على الصمود والمقاومة.

بدأت القوات الجزائرية هجومها مع بداية شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٠٧ م (١١١٩ هـ) وكان أول عمل قامت به هو تدمير مجاز الماء

الذي يرد من الخارج الى وهران، وعليه الحصن المنيع (برج العيون) حيث قام المجاهدون بحفر خندق وصل بهم الى داخل الحصن، ودارت معكـرة قاسيـة استطاع فيهـا المجاهدون طـرد القوات الاسبانية وابعادهـا عـن (رأس الماء) وحفـروا حـوله الخنـادق ونظموا الدفاع لاحباط كل هجوم مضاد قد تقوم به قوات العدو. ثم انتقل المجاهدون للهجوم على (برج العيون) وحفروا الملاغم لتدميره، غير أنهم فشلوا في تدميره، فهاجموه بقوة وتحت رصاص العدو وقنابله، حتى استطاعوا صعود جدران الأسوار، واقتحموها، وغلبوا أهلها عليها، وتمكنوا من احتلالها بعد معركة ضارية. وأسر المسلمون من بقايا المدافعين عن البرج (٣٢٢) مقاتلاً ومن أنصارهم من عرب جيذرة (٦٠) رجلاً. ووجدوا به من الجرحى (٢٧) رجلاً أمر الأمير بارجاعهم إلى أهلهم. وغنم المجاهدون كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية. وبلغ عدد القتلى الاسبانيين (٤٠) قتيلاً. أما عدد شهداء المسلمين فقد تجاوز المائتي شهيد وغربت شمس يوم الثلاثاء ١٠ جمادي الاخرة ١١١٩ هـ الموافق ٨ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٧٠٧ م عن أول نصر للمسلمين في تحرير وهران.

انصرف المجاهدون للتعامل بعد ذلك مع أضخم الحصون وهو (برج مرجاج الكبير) الذي كان يطلق عليه الاسبانيون اسم (برج القديس فيليب ـ أو الصليب المقدس ـ سانتا كروز) وحفر المجاهدون مجموعة من الملاغم المستطيلة وصلت إلى ما تحت البرج وشحنوها بالبارود وعرف الاسبانيون المدافعون عن البرج بأمر هذه الملاغم، وعرفوا من خلال الاشتباكات المستمرة واعمال القصف المتبادل بأنه بات من المحال الاستمرار في المقاومة، وأن المزيـد من العناد لن يؤدي بالحامية الاسبانية إلا إلى التمزق والفناء عندما ستتفجر الملاغم المدمرة

لتطيح بالبرج. فأعلن الاسبانيون تسليم الحصن يوم ٢٧ جمادي الآخرة الموافق ٢٥ ايلول ـ سبتمبر ـ ودخل المجاهدون المسلمون، فأسروا بقايا الحامية الاسبانية وعددهم (١٠٧) رجال و٣ نسوة. بالاضافة إلى كميات هائلة من الاسلحة والذخائر والمواد التموينية.

تعاظمت ثقة المجاهدين بأنفسهم وبقدرتهم على حسم الصراع بعد احرازهم لانتصارين متتاليين، فنقلوا ثقل هجومهم ضد أمنع حصون وهران واكثرها تحصيناً وقوة، وهو حصن (برج بن زهو) غير أن الهجوم مُني بالفشل، وتكبد المجاهدون خسائر فادحة. فاعاد المجاهدون تنظيم قواتهم وكرروا هجماتهم المتتالية طوال ثمانية أيام. ودافعت الحامية الاسبانية عن مواقعها بثبات كبير، وكبدت المجاهدين الخسائر الكبيرة مع كل هجوم يتم احباطه. وحاولت الحامية الاسبانية بعد ذلك مغادرة تحصيناتها ومجابهة قوات المسلمين في معركة تصادمية جبهية انتصر فيها المسلمون، وأرغموا الاسبانيين على التراجع الى ما وراء تحصيناتهم. وعند ذلك شرع المجاهدون في حفر الملاغم تحت الحصن. وكانت الأرض تحته صخرية صلدة مما تطلب بذل جهد كبير وتضحيات كثيرة حتى امكن انجاز الملاغم وحشوها بالبارود وتفجيرها، غير أن ذلك لم يؤثر تأثيراً كبيراً على الحصن، فاعيدت المحاولة مرة ثانية، ولم تكن النتيجة أفضل بكثير من سابقتها، وجاءت المحاولة الثالثة محققة للهدف، فانفجر البرج، وتداعت صخوره، واقتحمه المجاهدون، واشتبكوا مع حاميته التي صممت على متابعة الصراع المسلح حتى النهاية التي جاءت بالقضاء على مجموع أفراد الحامية، وابادة افرادها البالغ عددهم (١٢٠) مقاتلاً، بحيث لم يأسر المسلمون اكثر من ثمانية أسرى، وخسر المسلمون نحو المائتين من الشهداء. وانتهى المسلمون من تطهير الحصن واحتلاله يوم الخامس

من شعبان (الموافق تشرين الثانـي - نوفمبر).

وبقي على قوات المسلمين اقتحام آخر القلاع، واكثرها منعة وأضخمها بناء وأعلاها جداراً، وهي قلعة (البرج الجديد) الذي تبرعت ببنائه سيدة اسبانية (ابتغاء مرضاة السيد المسيح- وكلفها ذلك مبلغاً كبيراً من المال). وأمام هذا الموقف اضطر المسلمون للاحاطة به بمجموعة من المراكز الصغيرة التي اطلق عليها اسم (المتاريس - المتارز) والتي امتدت من ناحية (عين جندرة) حتى (شعبة الدجاج) وراء (البرج الجديد). ثم انتشرت هذه (المتاريس) إلى أرباض المدينة حتى اصبحت معقلاً دفاعياً واحداً. واخذ المجاهدون في استخدام المتاريس لتدمير المقاومات في المدينة، واستنزاف قدراتها، وصار رصاص بنادق المجاهدين يصل إلى أفراد الحامية الاسبانية وهم في عقر منازلهم. وبات من المحال عليهم الانتقال من مكان إلى مكان آخر، فاضطروا إلى ثقب جدران المنازل ووصل بعض ببعض عن طريق هذه الثغرات، وأثناء ذلك أخذ المجاهدون في التسلل إلى أطراف المدينة والتوغل فيها والاشتباك مع أفراد الحامية المدافعة عنها. حتى وصلوا إلى كنيسة (سانتا ماريا) فدمروا أصنامها، وصار قسم المدينة الموجود ما بين البرج الجديد والبرج الأحمر بين يدي المجاهدين. وأخذ الاسبانيون في نقل أستعتهم وممتلكاتهم إلى (المرسى الكبير). وبقيت الحامية الاسبانية المدافعة عن (البرج الجديد) صامدة في مواقعها، ولم يتمكن المجاهدون المسلمون من اقتحامه، غير أن تطور الصراع في المدينة أقنع قائد الحامية في البرج الجديد بعقم الاستمرار في المقاومة، فخرج يحمل راية الاستسلام، واتفق مع القائد العام الجزائري على ايقاف الاقتتال حول البرج، فإن تمكن المجاهدون من احتلال مدينة وهران، استسلم لهم البرج مع استسلام المدينة. ونقل المجاهدون ثقل

هجومهم نحو (البرج الاحمر) اخر ابراج المدينة، ودارت مجموعة من الاشتباكات والمعارك التي تكبد فيها الطرفان المتصارعان خسائر كبيرة بدون الوصول إلى الحسم، وأخيراً، قرر المسلمون القيام بهجوم عام جبهي، تدعمه المدفعية بنيرانها الكثيفة، ونجح هذا الهجوم في اقتحام البرج يوم ١٤ تشرين الثاني - نوفمبر - واضطر بقية افراد الحامية الى الاستسلام. وعند هذه المرحلة، عرف الحاكم الاسباني العام (دون ملشور دي افيلانيدا) أنه لم يبق ثمة أمل في المحافظة على المدينة أو الدفاع عنها، فاستقل سفينة نقلته إلى المرسى الكبير، ليغادرها بعد ذلك متوجهاً - الى بلاده - اسبانيا. وتدفقت حشود المجاهدين الى المدينة، بعد أن تم اسكات كل حصونها، وحفروا الملاغم تحت قصبتها، واقتحموها، فوجدو أن بقية أفراد الحامية الاسبانية قد هربت إلى المرسى الكبير. ولم يجدوا فيها الا مجموعة من الرجال العجزة، وبعض (المغطسين) من الاعراب الذين وقفوا الى جانب الاسبانيين، فتمت ابادتهم. وتبع ذلك استسلام (البرج الجديد) فوجد فيه المجاهدون اربعمائة مقاتل تم اسرهم علاوة على ما غنمه المسلمون من محتويات البرج واسلحته. وكان مجموع الاسرى الذين وقعوا في قبضة المسلمين (ألفي اسير) بينهم (مائتي ضابط من كبار الضباط) والموظفين وجماعة من متطوعي مالطا والإفرنسيين الذين اقتيدوا الى مدينة الجزائر.

وأصبح (المرسى الكبير) هو الملجأ الذي انضمت اليه فلول الحامية المدافعة عن وهران، فتم بذلك تدعيم حامية المرسى بالمزيد من القدرة القتالية، التي كان باستطاعتها الافادة من التحصينات الدفاعية والاسوار من اجل القيام بالمزيد من الصمود والمقاومة. ورفض المجاهدون المسلمون احراز نصر منقوص، فقرروا عدم

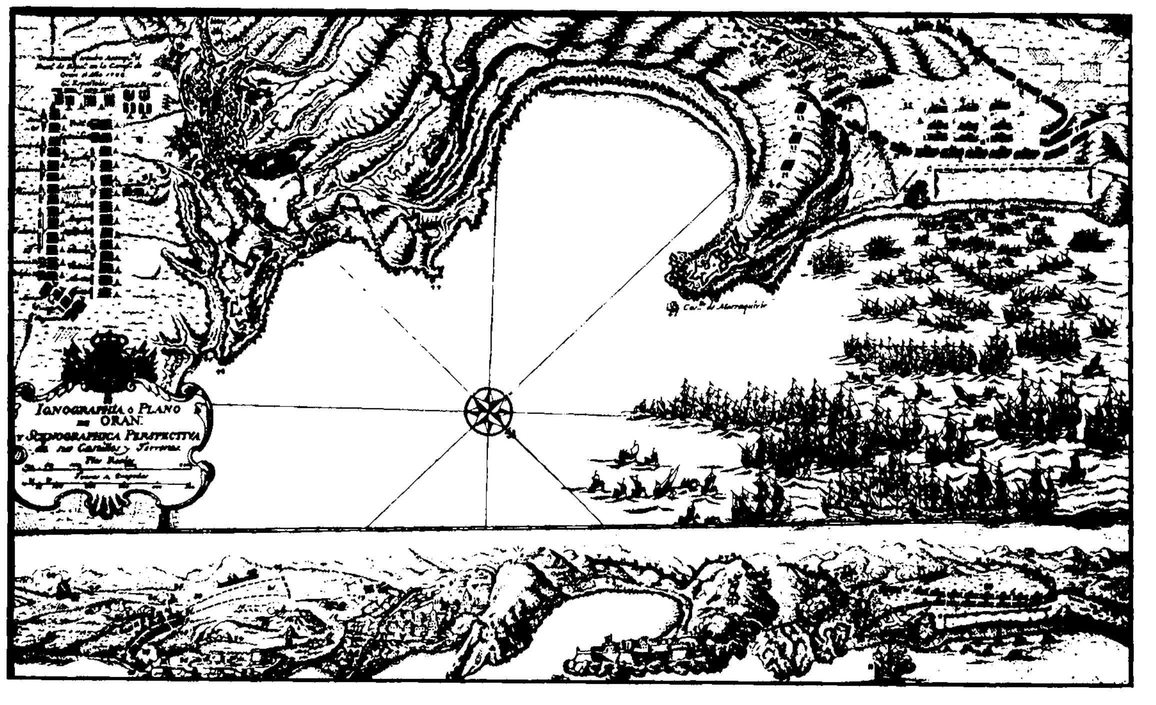
اضاعة الوقت، والانتقال بقوات الهجوم لتحرير (المرسى الكبير) وهكذا فما أن فرغ المجاهدون من استعادة وهران وتحريرها حتى نقلوا معسكرهم إلى جوار المرسى واحكموا الحصار حوله. ولم تكن معركة المرسى الكبير هينة، ولم تكن عملية انقـاذه بالامر السهل. فقد ركز الاسبانيون دفاعهم عنه، وعملوا على تحصينه طوال فترة احتلالهم له (١٥٠٥-١٧٠٨) فكان المرسى الكبير هو أول موقع قاموا باحتلاله، وكان آخر معقل خاضوا معركةً للاحتفاظ به. خاض الطرفان المتصارعان (المسلمون واعدائهم) مجموعة من المعارك الضارية اشترك فيها الجميع من الطرفين، الرجال والنساء وحتى الاطفال، وأمكن تبادل المواقعُ اكثر من مرة، حيث كانت راية النصر تنتقل نوباً بين الطرفين، وقام المسلمون بحفر الملاغم تحت حصن المدينة الاكبر واجراء التفجير مرات متتالية دونما نتيجة تذكر حتى جاء يوم (٢٤ محرم الحرام ١١٢٠ هـ الموافق ١٦ نيسان- ابريل - ١٧٠٨م) حيث استطاع المجاهدون المسلمـون اقتحام المدينـة، ودارت معركـة ضاريـة فـي الشوارع والمنازل، الى أن امكن ابادة المقاومات الاسبانية واستسلم بقية افراد الحامية- وعدد افرادها (١٤٦١) اسبانياً. اما جماعة المغطسين (من الكلمة الاسبانية موقاتاز) اي الاعـراب أنصـار الاسبانيين فقد تمت ابادتهم ونهبهم وسبيهم- غير أن الفقهاء احتجوا على ذلك لأنه مخالف للدين.

انصرفت وهران لتضميد جراحها. ولم تمض عليها فترة طويلة حتى عاد أهلوها وعملوا على اعمارها لتعود منارة للاسلام في المغرب العربـي الاسلامي، وعاصمة للاقليم (بايليك). وأرسل الداي (محمد بكداش) مفاتيح وهران الذهبية الثلاثية هدية إلى السلطان العثماني (أحمد) بشارة بالفتح، واعترافاً بفضل الخلافة الاسلامية في تقديم

الدعم والمساندة.

وترددت أصداء هذا النصر العظيم قوية في مشرق العالم الاسلامي ومغربه، ففرح لها المسلمون في كل مكان، وكانت فرحة الجزائر المجاهدة اكبر من كل وصف. فقد تمكنت بجهدها وتضحياتها من طرد الاعداء عن ترابها، فكانت فرحتها بالنصر معادلة لما قدمته من الجهد والتضحيات.





رسم اسباني لمدينة وهران والمرسى الكبير

٥ ـ الاسبانيون يعودون الى وهران
(١٧٣٢ م)

اذاع ملك اسبانيا (فيليب الخامس) [١] منشوراً ملكياً يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) أخذته كل مراكز البلاد الغربية وعملت على توزيعه والدعاية له، وتضمن المنشور ما يلي:

«قضت ارادتنا الملكية ألا نترك خارج دائرة كنيستنا المقدسة، وديانتنا الكاثوليكية، أي جزء من أجزاء الأرض التي كانت العناية الالهية قد وضعتها تحت سلطاننا، عندما اقتضت وضعنا على عرش هذه المملكة، والتي تغلب عليها الاعداء بكثرة عددهم، وأخذوها منا، وأخرجوها عن طاعتنا بواسطة العنف والاحتيال. اننا لم نترك قط التفكير في استرجاع تلك الأجزاء المقتطعة، انما حالت الاحداث المؤلمة بيننا وبين تحقيق أملنا في ذلك الاسترجاع، فلم نتمكن قبل اليوم من تجهيز القوى العظيمة التي وضعتها العناية الإلهية تحت تصرفنا. واليوم، وعلى الرغم من أننا لم نتخلص بصفة تامة من تلك الاحداث المؤلمة، فقد صممت على أن أبادر باسترجاع مركز (وهران)

---

(١) فيليب الخامس: (PHILLIPPE V) الحفيد الأصغر للملك الإفرنسي لويس الرابع عشر، ولد في فرساي سنة ١٦٨٣م. وأصبح دوق انجو في اول الأمر، ثم اصبح ملكاً لاسبانيا (١٧٠٠-١٧٤٦م) وبسببه حدثت حرب الوراثة الاسبانية. وقد حاول ان يعيد لاسبانيا عظمتها، غير أنه لم يفلح كثيراً في ذلك.

ذي الأهمية العظمى والذي كان فيما مضى محط آمال ، ومظهر قيمة التقوى المسيحية والأمة الاسبانية. ولقد رأيت أن بقاء وهران تحت سلطان المتوحشين الأفارقة، انما هو عائق عظيم يحول بيننا وبين نشر ديانتنا المقدسة. كما أنه باب مفتوح يواجه اسبانيا، ويهدد سكانها الساحليين بالغزو والاسترقاق.

. . . ومن أجل ذلك، قررت بأن أجمع في مدينة (اليقنت) [1] جيشاً يضم ثلاثين ألفاً من الرجال والفرسان، مع كل ما يلزمهم من الأسلحة والمؤن والمدفعية، وكل الآلات والمعدات اللازمة لمثل هذه المعركة الحاسمة. وعينت لقيادة هذه الحملة (الكونت دي موتيمار) ومعه مجموعة من القادة والضباط الذين تتوافر لهم الخبرة والشجاعة، مما يجعلنا نأمل بفوز مجيد في هذه العملية. ولقد جمعت بأمري في المكان ذاته عدداً عظيماً من السفن المختلفة الانواع والاشكال، تحرسها سفن الاسطول الكبيرة والصغيرة، لحمل هذه الجيش العظيم حالاً من اجل استرجاع مدينة وهران. وبما أن مثل هذه الحملة لا يمكن أن تنجح ما لم تكن مؤيدة بعناية الله، فقد أصدرت أوامري، لجميع ممالكي، بأن تقام في كل مكان صلوات عامة ابتهالاً إلى الله، من أجل تحقيق النصر لجيشنا في هذه المهمة العظيمة»(اشبيليا ٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٧٣٢م).

لقد عبر مضمون بيان (الملك فيليب الخامس) عن مدى المرارة التي نزلت بالاسبانين نتيجة طردهم من (وهران). كما يعبر عن مدى الاهمية التي كان يعلقها الاسبانيون على امتلاكهم لهذه القاعدة في حربهم ضد الاسلام والمسلمين. ولقد تم تحرير وهران في الفترة التي كانت تخوض فيها اسبانيا ومعها اوروبا كلها تقريباً ـ حرب الوراثة

---

(١) اليقنت: (ALICANTE) مدينة اسبانية تقع على البحر الابيض المتوسط ولها ميناء كبير.

الاسبانية (١٧٠١ـ ١٧١٤) وهي الحرب التي خرجت فيها اسبانيا وهي محرومة من معظم مستعمراتها فيما وراء البحار ـ لمصلحة انكلترا ـ ولهذا، فقد اتجه تفكير فيليب ـ منذ ان تم له الاستقرار على ملك اسبانيا بالعودة إلى (وهران) وفتحها من جديد، وأمضى في الاستعداد لهذه الحملة زهاء عشرين سنة تقريباً. وفي النهاية، أمكن له حشد قوات ضخمة تكونت من: (٣٠ ألف مقاتل و٥٢٥ سفينة من سفن النقل والسفن الحربية و٧٢٠ مدفعاً و١٦٤٢٠ قنبلة، و٥٦ ألف قنبلة يدوية و٨٠٦٩٣ قذيفة مختلفة و١٢٤٢٧ قنطاراً من البارود و٨ آلاف صندوق لرصاص البنادق و١٢ ألف بندقية ومليوني وجبة طعام لافراد الجيش علاوة على وسائط الحصار وبقية المتطلبات) [1] وعندما تم حشد كل هذه المتطلبات، أطلق ملك اسبانيا بيانه، واصدر امره إلى الحملة بالتحرك إلى هدفها. واقلع الاسطول الاسباني من خليج (اليقنت) يوم ١٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٧٣٢ فوصل بعد عشرة ايام إلى المياه الاقليمية لمدينة وهران، غير أن الرياح المعاكسة اعاقته عن الاقتراب من الساحل، فبقي يقوم بمناوراته على امتداد الساحل حتى يوم ٢٩ حزيران ـ يونيو ـ حيث تم له الاقتراب من وهران.

اختار الاسبانيون لنزولهم ساحة (عين الترك) على بعد خمسة عشر كيلو متراً إلى الغرب من وهران. ولم تكن القوة الاسلامية المدافعة عن الاقليم كافية لايقاف عملية الانزال أو تعطيلها. فأمكن للقوات الاسبانية انزال قواتهم واعتدتهم الثقيلة دونما عناء كبير. وأثناء ذلك استمرت الاشتباكات بين القوات الاسلامية الجزائرية وبين قوات العدوان على الرغم من قلة عدد المجاهدين المسلمين الذين لم

---

(١) المرجع ـ تقرير الحملة في (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ـ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

يلبثوا أن تلقوا بعض الدعم من حامية وهران مع شيء من المدفعية، فصارت اكثر قدرة على تكبيد القوات الاسبانية المزيد من الخسائر. وأرسلت القوات الاسبانية فرقة لمجابهة هذه الكتائب الجزائرية، فاشتبكت معها في القتال، وتقدمت شيئاً فشيئاً الى أن تمكنت من مشاهدة مركز التجمع الاسلامي، القليل العـدد والذي كان يمتد على طول الجبل المشرف على ميدان المعركة. انقضت حينئذ كتيبة من المجاهدين تشمل نحو الألفي رجل، بين مشاة وفرسان، على الميمنة الاسبانية، فتمكنت من احتلال مرتفع تقع تحته عين يستقي منها جند العدو، فحالت بينه وبين الماء. لكن القائد الاسبانـي أصدر أمره في الساعة الرابعة من عشية يوم ٢٩ حزيران - يونيو- إلى فرقة كبيرة من المشاة، ومعها أربعمائة فارس، بمهمة التصدي لهذه الكتيبة، العربية المسلمة، والقيام بحركة التفاف لقطع خط تراجع الكتيبة، غير أن هذه الكتيبة لم تقع في الكمين وانسحبت الى المرتفعات التي كانت قاعدة لمجموع القوى الاسلامية.

وأمضت القوتان المتصارعتان الليل في الاستعداد للمعركة، وما كادت تشرق شمس يوم ٣٠ حزيران -يونيو- حتى كانت ميسرة الجيش الاسبانـي قد التحمت في معركة ضارية مع المجاهدين قتل فيها قائد القوة الاسبانـي الذي كان يدير المعركة. وعندما رأت قيادة الاسبانيين أن ضغط القوات الجزائرية قد اشتد ضد الميسرة، أمرت بأن يتحرك الجيش كله ضد المراكز الجزائرية، وانطلق الهجوم الاسبانـي بقوة وعنف فامتد افق المعركة ليشمل الجبهة المواجهة بكاملها. ولم تصمد قوات المسلمين لثقل هذه الهجمة، فتراجعت عن مواقعها لتحتل مواقع جديدة على جانبي فج عميق ينحدر من الجبل، وهو ممر الجيش الاسبانـي، وأخذوا في توجيه نيرانهم ضد القوات الاسبانية، وأوقعوا

فيها خسائر فادحة. لكن القوات الاسبانية افادت من تفوقها العددي فتمكنت من دحر قوات المجاهدين التي اضطرت من جديد إلى التراجع والاعتصام بمواقع اخرى تقع إلى الخلف من سابقتها في عمق الجبال. وأصبح باستطاعة القوات الاسبانية الاشراف من مواقعها على مدينة (المرسى الكبير).

كان الباي الشيخ (مصطفى بوشلاغم) فاتح وهران وأميرها منذ سنة (١٧٠٧م) قد استعد للدفاع بما توافر له من القوى والوسائط. وتجمع حوله ما يزيد على العشرين ألفاً من المجاهدين من رجال الشعب، بالاضافة إلى قوة الجيش المكونة من (٢٥٠٠) مقاتل، وكانت وهران مسلحة بما يزيد على (١٣٨) مدفعاً منها ٨٧ مدفعاً من البرونز. وقد عمل على توجيه جزء من هذه القوة لمقاومة الاسبانيين في منطقة الانزال (عين الترك) وعندما تطورت المعركة جمع (مصطفى بوشلاغم) قادته وأعاد تقدير الموقف على اساس التفوق الاسباني فتقرر الانسحاب من مدينة (وهران) واخلاءها من سكانها ومن الحامية المدافعة عنها. على أن تستمر المقاومة فيما وراء المدينة، ريثما تتوافر قوات دعم كافية لاستعادة المدينة وخرج الباي ورجال الادارة وامتعتهم واموال الحكومة - على مائتي بعير - وتبعهم السكان. ولم يكن عددهم حينئذ كبيراً، ودخل الاسبانيون يوم أول تموز - يوليو - المدينة فكانت مدينة مهجورة، خالية من كل حياة.

وكان داي الجزائر (عبدى باشا) قد أرسل دعمًا سريعاً من الجزائر يتكون من ألـفي رجل تحت قيادة ابنه، غير أن هذا الدعم وصل متأخراً، حيث كانت القوات الاسبانية قد دخلت المدينة، فانضم هذا الدعم إلى قوى المجاهدين التي طوقت المدينة من كل جهاتها. وما كاد نبأ سقوط المدينة يصل إلى الجزائر حتى هيمن عليها

الغضب، واعتزل الداي ـ الذي كان قد بلغ الثامنة والثمانين من عمره ـ ولم يلبث أن قضى نحبه حزناً.

كانت حامية وهران قد تركت في المدينة عند انسحابها كامل مدفعيتها، ولم تحمل معها الا اسلحتها الخفيفة، ورابطت في الجبال المهيمنة على المدينة، وأخذت في تضييق الحصار عليها، فلم يتمكن الاسبانيون من التحرك بعيداً عن المدينة، ولهذا عملوا على اعادة معظم قواتهم إلى اسبانيـا تاركين في وهران والمرسى الكبير حامية قوية وكافية للدفاع عنها. واستمرت الاشتباكات العنيفة طوال سنة تقريباً. وكان من ابرزها معركة يوم ٤ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ حيث تمكن المجاهدون من عزل حصن (سانتا كروز) بحيث لم يتمكن الاسبانيون من امداده الا بعد معركة ضارية تكبدوا فيها خسائر فادحة. وفي يوم ٤ تشرين الثانـي ـ نوفمبر ـ هاجم المجاهدون المدينة ووصل الباي (مصطفى بوشلاغم) على رأس فرقته إلى ابواب المدينة، والتحم مع الاسبانيين في معركة ضارية استشهد خلالها ابنه. وفي يوم ١٢ تشرين الثانـي ـ نوفمبر ـ اندلعت نيران معركة جديدة، قتل فيها المركيز (دي سانتا كروز) وعدد كبير من افراد الحامية الاسبانية. وفي سنة (١٧٣٣م) قام المجاهدون يوم ١٠ حزيران ـ يونيو ـ بهجوم عنيف على المدينة، وقتل القائد الاسبانـي (دي ميروسنيل) ومعه عدد كبير من افراد الحامية الاسبانية. وقام (مصطفى بوشلاغم) بقيادة هجوم جديد في سنة (١٧٣٤ م) ضد (مركز العيون) حول وهران، ووصل الى ابواب المدينة، غير انه لم يتمكن من احتلالها.

وهكذا بقيت (وهران والمرسى الكبير) تحت حصار محكم، وتحت التهديد الدائم بالحرب طوال خمسين عاماً، إلى أن تم تحريرها نهائياً في سنة (١٧٩١م).

٦ ـ تبادل الاسرى والمعركة البحرية

امام الجزائر (١٧٧٣ م)

حاولت اسبانيا بعد استيلائها على وهران والمرسى الكبير الوصول إلى سلم مع الجزائر، غير أن هذه رفضت الدخول في أية تسوية سلمية طالما بقيت القوات الاسبانية فوق أرض الجزائر. واستمرت المفاوضات فترة طويلة، تتوقف فترة لتستأنف في مرحلة لاحقة. وامكن في النهاية الوصول إلى اتفاقية لتبادل اطلاق سراح الاسرى فقط، وعقدت الاتفاقية الاولى في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر ـ سنة ١٧٦٨م. واشترط الجزائريون أن تطلق اسبانيا جميع من لديها من اسرى المسلمين مقابل اطلاق سراح الاسرى الاسبانيين الموجودين في الجزائر فقط. وبموجب هذا الاتفاق اطلقت اسبانيا سراح (١٢٠٠) أسير مسلم مقابل (٧١٢) أسير اسباني. واعيد تطبيق هذه الاتفاقية ذاتها في سنة ١٧٧٣، واشترطت الجزائر في هذه المرة اطلاق سراح أسيرين مسلمين مقابل كل اسير اسباني، وبذلك أطلقت اسبانيا (١١٠٦) أسيراً من المسلمين ـ هم كل من كان لديها ـ مقابل اطلاق الجزائريين سراح (٥٧٠) أسيراً من الاسبانيين.

ظنت الادارة الاسبانية بعد ذلك، أن الظروف قد باتت مناسبة لها لتوجيه حملة هدفها تدمير مدينة الجزائر واخضاعها، اذ كانت الدولة الجزائرية في حال حرب مع معظم الدول الاوروبية، وكان الاسطول

الجزائري منتشراً في عدد كبير من قواعد البحر الأبيض المتوسط. ووضعت الادارة الاسبانية مخطط عملياتها على اساس تحقيق الاهداف التالية: ١ـ مهاجمة الجزائر بحراً بواسطة قدرة بحرية كافية. ٢ـ تدمير السفن الجزائرية التي تكون راسية بالميناء ـ المرسى ـ. ٣ـ تدمير حصون مدينة الجزائر وقلاعها. ٤ـ فرض الشروط المناسبة لاسبانيا على حكومة الجزائر. واخذت الادارة الاسبانية بعد ذلك في حشد اسطولها البحري في مدينة قرطاجة الاسبانية، فتجمعت (٧٦) سفينة حربية، اسندت قيادتها للاميرال (انطونيو ـ باركلو)

تلقى داي الجزائر (محمد عثمان باشا) إعلاماً من ملك المغرب (السلطان محمد بن عبد الله) في شهر ايار (مايو) ١٧٧٣م (١١٨٧ هـ) يعلمه بتجمع الاسطول النصراني واستعداده لمهاجمة الجزائر ـ خلال فترة وجيزة ـ فشرع (داي الجزائر) بالاستعداد لمجابهة العدوان في البر والبحر، وشملت استعداداته:

١ـ تجميع القوات في الجزائر، واستقدام القوات من داخل البلاد، فجاء من ولاية قسنطينة (بايليك) (٢٥) ألفاً ومن ولاية معسكر (٢٠) ألفاً ومن ولاية تيطري (٥) آلاف.

٢ـ اخراج السكان المدنيين من مدينة الجزائر ومعهم أمتعتهم وثرواتهم الى حدائق النزهة في ظاهر المدينة.

٣ـ ارسال الاسرى المسيحيين فوراً ـ وعددهم ١٥٤٨ أسيراً ـ الى مدينة المدية.

٤ـ الشروع فوراً ببناء سفينتين مسلحتين بالمدفعية القوية لدعم الاسطول البحري (العمارة).

غادر الاسطول الاسباني قواعده في شهر تموز (يوليو) ١٧٧٣- وأصبح لزاماً على الاسطول الجزائري المكون من (٢٥) سفينة، مجابهة اسطول العدو المتفوق بمعدل ثلاثة أضعاف تقريباً. وصل الاسطول الاسباني إلى المياه الاقليمية لمدينة الجزائر يوم ٢٩ تموز (يوليو) واصطفت سفنه في مواجهة المدينة استعداداً للانقضاض عليها وقصفها، فرفعت الحصون الجزائرية على الفور اعلامها، وبادرت سفن العدو باطلاق النار عليها.

وفي يوم ٣٠ تموز - يوليو- غادرت مرسى الجزائر بعض السفن، وسارت متحدية الاسطول الاسباني الذي اشتبك معها بالنيران، غير أنه لم يتمكن من اصابتها بسوء، واستمر تبادل اطلاق النار بين القوتين.

قامت مدفعية الاسطول الاسباني بقذف قنابلها على الميناء -المرسى- يوم ١- آب- اغسطس- وردت عليها بطاريات الحصون برمايات كثيفة ومركزة. وخرجت عوامتان جزائريتان تجرهما القوارب، فاقتربتا من الاسطول الاسباني، والقتا عليه ما كانتا تحملانه من القنابل، ثم رجعتا إلى المرسى سالمتين، ثم خرجتا مرة ثانية، ومعهما سفن اخرى، وهاجمت هذه القوة الاسطول الاسباني، ثم رجعت سالمة، وخسر الجزائريون ٨ - ١٠ شهداء بينهم وزير الحرب.

وفي يوم ٢ آب -أغسطس- فتحت حصون الجزائر نيرانها ولم ترد عليها مدفعية الاسطول الاسباني الا بعد ساعتين تقريباً. ثم خرجت قوة بحرية جزائرية لمهاجمة الاسطول المعادي، واشتبكت معه بنيران المدفعية، فيما كانت مدفعية الحصون تتابع قذف الاسطول الاسباني باستمرار حتى الساعة (١٦,٠٠) مساء، فتوقفت المدفعية الاسبانية،

واوقفت المدفعية الجزائرية عملية القصف بعد ذلك بربع ساعة. وأثناء ذلك أصابت قنابل الاسبانيين بعض منازل المدينة، كما نزلت قذيفة بدار الحكومة (قصر الجنينة).

وتجدد القتال يوم ٤ آب ـ أغسطس ـ وخرجت السفن الجزائرية، وهاجمت الاسطول الاسباني وأصلته ناراً حامية، وكان ضرب بطاريات الارض ـ الجزائرية ـ قوياً جداً، كما كان قصف الاسطول الاسباني أشد قوة من كل الاشتباكات السابقة. ظهرت ريح قوية شرقية ـ يوم ٥ آب ـ أغسطس ـ وانتشرت غيوم الضباب الكثيف، فاعاقت حدوث اشتباكات قوية. وفي المساء أمكن تبادل القذف المدفعي. ودعم الجزائريون قواتهم بوضع مدافع اضافية.

وتقدمت السفن الاسبانية يوم ٦ آب ـ أغسطس ـ فاصطدمت بسفن الاسطول الجزائري، وتبادلت القوتان اعمال القذف. واشتركت مدفعية الحصون بدعم الاسطول الجزائري. ورجعت السفن الاسبانية في الساعة(١٨,٠٠) إلى مركز التجمع بعد أن أصابت قنابلها بعض منازل المدينة فدمرتها. وأصيبت سفينة جزائرية فاحترقت، غير أن بقية السفن انقذتها. وقتل في معركة هذا اليوم وجرح (٣٠) رجلاً. كما غرقت سفينة استطلاع جزائرية (جوالة) وغرق قائدها.

وفي يوم ٧ آب ـ أغسطس ـ اتخذت السفن الاسبانية مواقعها للقتال وتقدمتها سفينتان لرمي المدفعية، فتصدى لها الاسطول الجزائري، واشتبك معها بالنيران لمدة ساعتين، ثم انسحبت السفينتان الاسبانيتان. واستؤنف القتال في المساء. واصيبت بارجة اسبانية كانت تحتل أقصى موقع في تشكيل المعركة، فانفجرت وصدر

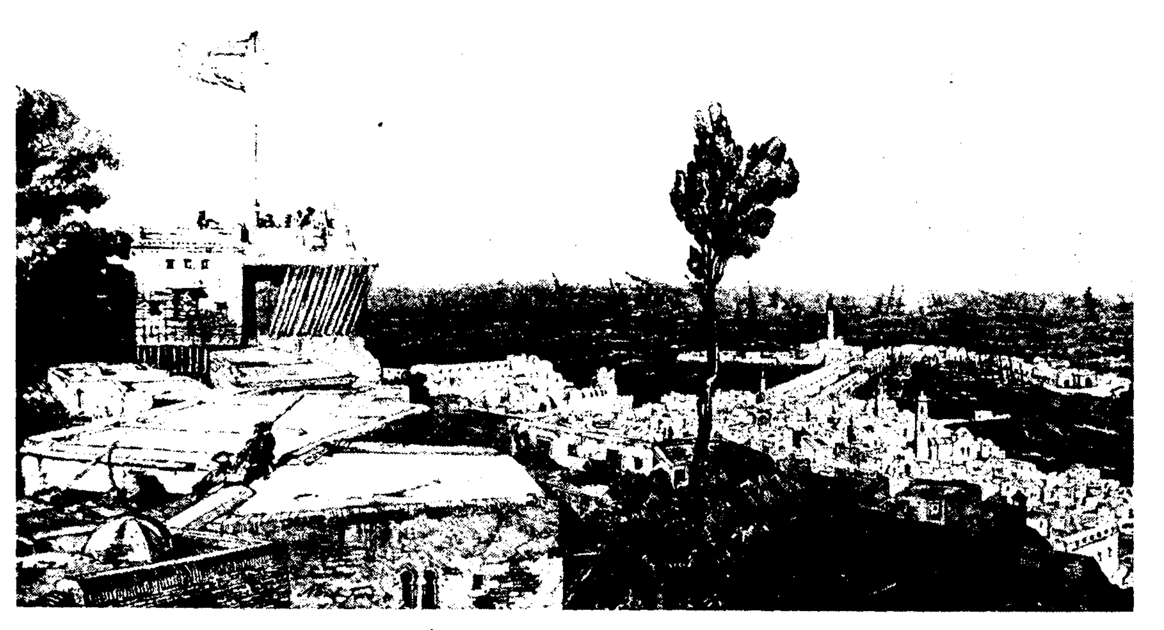
عنها دوي هائل، وعندما تقشعت سحب الدخان، تبين أنه لم يعد هناك أثر لهذه البارجة، وتوقفت المعركة، وعادت سفن الطرفين المتصارعين إلى مراكزها.

ثم القى الاسبانيون عدداً من القنابل على المرسى (الميناء) يوم ٨ آب ـ أغسطس ـ غير أن هذه الرمايات لم تكن محكمة، وسقطت بعيداً في البحر.

استعد الاسطول الاسباني للانسحاب يوم ٩ آب ـ أغسطس ـ واتجه نحو الشمال. ومرت سفينة الاميرال الاسباني اثناء انسحابها على مسافة قريبة جداً من الحصون الجزائرية، فحيتها الحصون الجزائرية بطلقتي مدفع (بالبارود وبدون قذائف).

انتهت هذه المعركة بفشل ٩ هجمات اسبانية، واطلق الجزائريون خلالها (١٥) ألف قذيفة من قذائف مدفعيتهم. وخسر المسلمون في هذه الهجمات مائة شهيد بالمرسى ولم يعلن الاسبانيون عدد قتلاهم، وخاصة ضحايا السفينة البارجة التي غرقت.

أما بالمدينة، فقد كان عدد القتلى نحو الثلاثمائة. وتم أيضاً تدمير ثلاثمائة منزل تقريباً. وبلغ عدد القنابل التي قذفها الاسبانيون على الاسطول الجزائري وعلى المدينة اكثر من (٧٥٠٠) قنبلة وقذيفة من عيارات مختلفة.



الوالي الجزائري يشرف على معركة بحرية أمام مدينة الجزائر

٧ - الجزائر تدمر الحملة

الاسبانية الكبرى (١٧٧٥ م)

لم يكن استيلاء اسبانيا على وهران والمرسى الكبير غير مرحلة في احلام الملوك الاسبانيين للتوسع عبر المغرب العربي - الاسلامي. وكان هذا الاحتلال لوهران محدود القيمة، محدود الاهمية، ما لم يصل إلى الجزائر ذاتها، ولكن الظروف لم تكن مناسبة لتطوير هذا الاحتلال، لا سيما بعد تلك المقاومة الضارية التي قدمتها الجزائر لحصار الحامية الاسبانية في وهران والمرسى الكبير والتضييق عليها، حتى اذا ما جاء (شارل الثالث) [١] حاول السير على أثر اسلافه، فجهز حملة قوية تكونت من: (٢٢٦٠٠) مقاتل و(مائة مدفع ضخم من مدفعية الحصار) و(٤٤) سفينة حربية و(٣٤٤) سفينة نقل، بالاضافة إلى وسائط القتال الاخرى والذخائر والمواد التموينية، وعندما انتهت الاستعدادات تولى (الكونت أوريلي) قيادة الحملة وتوجه بها إلى الجزائر في شهر حزيران -يونيو- ١٧٧٥م. ووصلت سفن الحملة إلى مياه الجزائر مع بداية شهر تموز -يوليو-.

---

(١) شارل الثالث: (CHARLES - III) ابن فيليب الخامس، ولد سنة ١٧١٦، وأصبح ملكاً على اسبانيا سنة ١٧٥٩، ووضع النظام المشهور باسمه في سنة ١٧٧١ م وهاجم الجزائر سنة ١٧٧٥ وتوفي سنة ١٧٨٨ م. وتولى الحكم بعده ابنه باسم شارل الرابع.

وقرر (الكونت اوريلي) قائد الحملة انزال قواته عند فجر يوم ٣ تموز (يوليو) فوق أرض الساحل الواقع إلى الجنوب من (وادي الحراش). وطلب إلى قائد الاسطول (الاميرال مازاريدو) دعم الانزال بمدفعية الاسطول للرمي على منطقة الانزال، كما أمر بأن يتم انزال ١٢ قطعة مدفعية عيار (٤) و١٢ قطعة مدفعية عيار (٨) وثمانية مدافع عيار (١٢) وذلك مع انزال الافواج الاولى من قوات الغزو. وتقرر اقتراب سفن الانزال إلى اقرب نقطة من الساحل. وحددت مهمة كل سفينة حربية ومجموعة سفن النقل المرافقة لها. غير أنه تبين صعوبة الانزال يوم ٣ تموز (يوليو) فتقرر تأجيل تنفيذ العملية إلى اليوم التالي. وهبت رياح قوية جداً صبيحة يوم ٣ تموز (يوليو) فأصبح من المحال تنفيذ عملية الانزال بسبب هياج البحر. وفي مساء هذا اليوم ذاته، جمع القائد العام للحملة هيئة اركانه فتقرر انزال القوات عند خليج (مالا موجير) الواقع غرب رأس كاكسين (غربي الجزائر بمسافة عشرين كيلو متراً تقريباً). وحددت السفن المخصصة لهذا الانزال وسفن الدعم التابعة لها. ونفذت البحرية ما هو مطلوب منها وأصدر قائد الاسطول (الاميرال مازاريدو) أوامره باقلاع السفن، وفق التنظيم التالي:

... تتحرك السفن تحت قيادة القائد العام، وتكون وراءه السفن ناقلة الجيش، تليها السفن ناقلة الفرسان وآلات الحرب والعتاد والمؤن. وتتقدم السفن إلى اقرب نقطة من الساحل حتى تتمكن قوات الغزو من النزول بسرعة والسير فوراً نحو المرتفع الذي تعلوه قلعة السلطان (برج بوليلة) المشرفة على الجزائر، وتحتل البطاريات الجزائرية الموجودة هناك..

غير أنه ما ان هبط ظلام الليل، وأزفت الساعة المحددة لاعطاء

الاوامر بالتحرك، حتى كانت الريح قد اخذت في الاتجاه نحو الشرق، واهتاج البحر واضطرب، فحال ذلك دون تنفيذ عملية الانزال. وعقد قائد الحملة من جديد مؤتمراً لهيئة اركانه، فتقرر تعديل مخطط الانزال، والعودة لانزال القوات عند المكان الذي تم اختياره من قبل (إلى الجنوب من وادي الحراش) على أن تنفذ العملية يوم ٧ تموز - يوليو -. وانصرف قائد الاسطول لوضع المخطط النهائي بنقل الجند، وتعيين السفن المكلفة بالتنفيذ، بحيث يتم انزال (٧٧٠٠) رجل في موجة الانزال الاولى ثم تليها الموجة التالية المكونة من (٧٠٠) رجل فقط. وعندما أزف الموعد المحدد للانزال (من صباح يوم ٧ تموز -يوليو) هدأ البحر قليلاً. فقام قائد الاسطول بتوزيع قائمة السفن المخصصة لكل فرقة من الفرق السبعة، وتم تعيين ضابط بحري لكل مجموعة من سفن النقل واجبه تنسيق التعاون مع قائد الفرقة التي سيتم نقلها، والتي سيرافقها حتى منطقة انزالها. ثم ذهب القائد العام (الكونت أوريلي) برفقة قائد الاسطول للاشراف على العملية. وأمكن لهما تحديد مرابض بطاريات المدفعية الجزائرية التي تم نشرها على الساحل المخصص لانزال القوات الاسبانية. فقرر القائد العام وضع سفينتين حربيتين في مواجهة كل بطارية من بطاريتي المدفعية الجزائر.

كانت الجزائر تتابع الموقف منذ أن بدأت اسبانيا بالاعداد لحملتها، وعرفت أنها هي المستهدفة من هذه الحملة. فاستعدت لتلقي صدمة الهجوم. تحت قيادة والي الجزائر (الداي محمد عثمان باشا). وهكذا فعندما وقفت قطع الاسطول الاسباني في مواجهة الجزائر، لم يكن الأمر مباغتاً. ووقف المقاتلون المسلمون وهم يتابعون حركة سفن الاسطول وهي تصطف على اشكال وخطوط مختلفة، في خيلاء وتحد، ثم عندما وجهت هذه السفن مقدماتها في مواجهة وادي

الحراش، وعندما وصلت إلى مدى رمي المدفعية الجزائرية بدأت بانزال القوات. وعلى الرغم من معرفة المجاهدين مسبقاً بأمر هذه الحملة، فقد كان حجم قوات الغزو، وتفوقها، مثيراً للقلق، وهنا انطلق قادة المجاهدين، ومشايخهم، وهم يحضون على القتال، ويرددون على اسماع المجاهدين قوله تعالى: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» فاطمأنت النفوس لذكر الله وانزل الله السكينة على قلوب المؤمنين.

عمل والي الجزائر (محمد عثمان باشا) على استنفار كل قادر على حمل السلاح وحشده في المعركة، كما كلف الاولاد - الصبيان - ممن يتجاوزون عمر السابعة بالعمل مع المجاهدين لمساعدتهم في اعمال الدفاع والتحصين، وتم اختيار المواقع المناسبة (لمرابض المدفعية). وقسمت القوة على النحو التالي:

١ - قوة مقاتلة بقيادة (حسن الخزنجي) - وزير المالية ومركزه (عين الربط) - وهو الحي الذي يدعى اليوم باسم (ساحة المناورات) بين مدينة الجزائر وحي بلكور.

٢ - قوة مقاتلة بقيادة (القائد علي) المعروف (بآغة العرب) ومركزه عند (وادي خنيس) وهو في آخر حي العناصر حالياً (حيث حديقة التجارب).

٣ - قوة مقاتلة بقيادة (خوجة الخيل - وزير الحربية) ومركزه في (باب الوادي).

٤ - قوة باي الشرق (صالح) التي عسكرت على وادي الحراش.

٥ - قوة باي (تيطري) مصطفى باي التي اقامت معسكرها على جهة (تامانتغوس) ومعها بعض القبائل وفرسان ناحية سباو.

٦ـ قوة خليفة الغرب (محمد عثمان) التي ضمت (٤) آلاف فارس من فرسان العرب الدواير، وقد اقامت معسكرها على مقربة من معسكر (الخزنجي).

٧ـ قوة باي الغرب (ابراهيم باي) والتي اقامت معسكرها على مقربة من مدينة (مستغانم) وواجبها العمل كقوة احتياطية.

ومضى كل قائد لتنظيم قواته في المنطقة المحددة له، واقيمت التحصينات، وحفرت الخنادق، واتصل العمل في الليل والنهار، فيما كانت المدفعية تشتبك مع سفن الاسطول، وما ان سمع رجال القبائل في الجبال القريبة من الجزائر، باقتراب قوات الغزو الاسباني حتى اسرعوا من كل ناحية للاشتراك في شرف الجهاد. وتبعتهم جموع المجاهدين من كل انحاء الجزائر، وبصورة خاصة من ناحية (قسنطينة) حتى ضاقت بهم الأرض على رحبها وسعتها.

اختار قائد الحملة الاسباني خمس سفن حربية- من اكبر سفنه واقواها تسليحاً- وكانت كل سفينة منها تحمل ثمانين مدفعاً، وكلفها بالتمهيد لعملية الانزال بقذف قنابلها من عيار ٢٤ و٣٦ رطلاً. ووقفت سفينتان منها في مواجهة (برج الشرق- أو برج الكيفان). واثنتان منها في مواجهة (محلة الآغا) ووقفت الخامسة في مواجهة (محلة الخزنجي). واخذت هذه السفن في قصف مرابض بطاريات المدفعية الجزائرية، اعتباراً من صباح يوم ٧ تموز -يوليو- وردت عليها المدفعية الجزائرية برمايات كثيفة ومركزة استمرت طوال الليل. ثم انسحبت السفن إلى عرض البحر مبتعدة عن مدى عمل المدفعية الجزائرية، ومفسحة المجال أمام سفن النقل التي استمرت في نقل القوات وانزالها طوال اليوم والليلة التالية. وتمكنت المدفعية الجزائرية من انزال بعض الخسائر في سفن انزال العدو. واثناء ذلك نقلت مدفعية الاسطول

الاسباني رماياتها الكثيفة ضد حصون المسلمين ومواقعهم في (الحراش وخنيس). ثم اخذت سفن الانزال بالتوجه إلى مصب وادي خنيس وقامت بانزال قسم من قواتها عنده. وبادرت قوات الغزو هذه بالانقضاض على مواقع المجاهدين المسلمين غير أن هؤلاء استطاعوا تدمير الموجات المتتالية للقوات الاسبانية، ووصلت مجموعة مقاتلة اسبانية إلى البساتين حيث كان يتمركز (مخزن البارود) إلى جانب بطارية مدفعية خنيس، وهنا دارت معركة ضارية امكن بواسطتها ايقاف التقدم الاسباني.

وأمضى المقاتلون من الطرفين ليلهم في الاستعداد للقتال، وعندما ارتفع الأذان لفجر يوم ٨ تموز - يوليو - وذهب المسلمون للصلاة، دوت المدفعية الاسبانية معلنة بدء المعركة، واحتل المجاهدون مواقعهم، ووقفوا خلف تحصيناتهم، ولم تلبث نيران المدفعية الاسبانية أن غطت مواجهة الجبهة بكاملها (من مربض باي قسنطينة ما بين وادي الجميز والحرج، وحتى محلة الخزنجي ما بين وادي الحراش وعين الربط). واستمر القصف الكثيف حتى طلعت الشمس وعندها شاهد المجاهدون أن هناك اكثر من الف وخمسمائة سفينة وناقلة وفلك وقارب قد اتجهت صوب وادي الحراش وعين الربط. واسرع قادة قوات المسلمين في قيادة قواتهم نحو المكان الذي حدده الاسبانيون للانزال، واخذوا في الاستعداد للمعركة.

شحنت القوات الاسبانية فوق ناقلات الجند كل ما تتطلبه عمليات التمركز والتحصين، وحملت معها كميات مذهلة من الاكياس الفارغة (لتملأ بالتراب والرمل وتوضع بعضها فوق بعض) كما دفعت مع المقدمة وحدات من المهندسين للإشراف على اقامة التحصينات وتنظيم الأرض. وكانت السفن تتقدم بصورة بطيئة نحو

الساحل، بينما كانت السفن الحربية تلقي بمقذوفات مدافعها على معسكرات المسلمين في الشرق، وعلى معسكر الخزنجي بصورة خاصة، وقابلت بطاريات مدفعية المسلمين اعمال القصف بقصف مضاد اشتركت فيه كل المدفعية باستثناء مدفعية المرسى ومدينة الجزائر، نظراً لأن السفن الاسبانية كانت بعيدة عنها وخارج مجال عملها. ووصلت السفن الاسبانية، وألقت بمراسيها في البحر، وتقدمت القوارب تحمل الجنود حتى وصلت على مقربة من الساحل، فوضعت ألواحاً من الخشب تصل بينها وبين البر، اجتازها الجند، واستقر فوق اليابسة. وكان كل جندي من جنودهم يحمل بندقية ورمحاً برأسين من الحديد، لكي يغرسوها في الأرض حول معسكرهم، فتعيق وصول الفرسان المسلمين اليهم. وكذلك أنزلوا معهم كميات ضخمة من الاخشاب التي ربط بعضها إلى بعض من أجل اقامة الحواجز. وهكذا فما ان وطئت اقدام الاسبانيين الارض حتى اقاموا معسكرا منيعاً، دعموه بحفر خندق عميق، ثم اوثقوا حوله الحبال، ووضعوا وراءها اكياس الرمل. وغرسوا أعمدة من الخشب بين هذه الاكياس ثم ان كل فرقة من فرق الجند شبكت حول منطقتها، وعلى شكل دائري، تلك الرماح ذات الرأسين الحديديين التي أنزلوها معهم، ، فكانوا يستطيعون التنقل والسير وهم محتمون بتلك الدائرة التي تمنع عنهم الهجمات المباغتة لقوات المسلمين. وأمكن انشاء ذلك المركز الذي كان أشبه شيء بمدينة صغيرة خلال فترة قصيرة من الوقت، وكان يتخلل المعسكر ١٤ طريقاً يتصل بعضها ببعض. وحفروا في الوسط بئراً يستسقون من مائه العذب.

قامت قوات المجاهدين بهجوم قوي على معسكر الاسبانيين، فقتلوا كل الجنود الذين كانوا خارج المعسكر، غير انهم لم يتمكنوا من

اقتحامه، فانسحبوا ومعهم قتلاهم وجرحاهم. ثم استؤنفت المعركة بقوة وشدة. وكانت القنابل والرصاص تسقط بكثافة عالية، وتحصن المسلمون وراء بطارياتهم وفوق كثبان الرمل المحيطة بالمعسكر الصليبي. وكانت قذائف المسلمين ورصاص بنادقهم يصيب جند الاعداء وهم في داخل معسكرهم، فكانوا لا يستطيعون الخروج منه أبداً. وكلما سقط منهم رجل أخذوه فوراً الى القوارب التي تنقله للاسطول، فربطوا رجله الى قذيفة وألقو به الى البحر حتى لا تطفو جثته فوق الماء، وكانوا أحياناً يجمعون الخمسة والستة من الجثث ويربطونها إلى قذائف ثم يلقون بها الى البحر. وهكذا يفعلون بموتاهم داخل معسكرهم. لكن هذه الاعمال لم تكن حاسمة. ولم يجد المسلمون حيلة لاقتحام مركز العدو الاسباني نظراً للعدد الضخم من القنابل الذي كان يتساقط حول المعسكر لحمايته. واقترح باي قسنطينة القيام بهجوم شامل، على أن تتقدمه الجمال كستارة وقائية، وجمعت الابل من كل ناحية بسرعة ودفعت نحو معسكر الاسبانيين تبعها عن قرب المجاهدون وعلى رأسهم القادة والولاة ودارت معركة طاحنة تحول لها النهار إلى ليل لكثرة دخان البارود والغبار المتصاعد، ولم تسفر المعركة عن نصر حاسم، فتراجع المسلمون من جديد، وأخذوا في الاستعداد للقيام بهجوم ليلي.

وكان المعسكر الصليبي محدداً جداً، وضيقاً، وفيه تكدست جماعات الجند وكميات السلاح والذخائر، واقام فيه الاسبانيون ستين نقطة محصنة، غير ان التحرك بين هذه النقاط كان صعباً جداً بسبب ضيق المعسكر، ولهذا كان من المحال القيام بأي مناورة للقوات. وكانت ميمنة هذا المعسكر على وشك الانهيار تحت هجوم المسلمين لولا تدخل السفن الاسبانية، وتوجيه نيران غزيرة عطلت تقدم المجاهدين

وأوقفته. وكذلك الأمر بالنسبة للجناح الشرقي الذي تعرض لهجوم فرسان المسلمين وكاد يسقط بدوره لولا دعم القوات البحرية. ولهذا اعادت القيادة الاسبانية تنظيم مواقعها على عمق جبهة لا يتجاوز الخمسمائة متر. واستمر الاسبانيون في المقاومة ضمن هذه المنطقة الخطرة. وكانوا يتلقون ضربات محكمة لا يعرفون مصدرها فيتساقط منهم الجنود صرعى. وكانت كل رمية بندقية يقذفها المسلمون تصيب مقتلاً من جند الاسبانيين بسبب ضيق المكان واكتظاظه بالمقاتلين. وزاد الامر سوءاً ـبالنسبة للاسبانيينـ نتيجة الرمايات المحكمة التي كانت تطلقها بطارية (وادي خنيس) وهي البطارية التي لم تتمكن السفينة (القديس شارل) من تدميرها. فأحدثت رمايات بطارية المسلمين خسائر فادحة في القوات الاسبانية. وزادت خسائر الاسبانيين. فامتلأت القوارب بالجرحى الذين كان يتم نقلهم الى مركز الاسطول، حيث تجرى لهم الاسعافات الاولية في السفن الحربية، لينقلوا بعدها إلى احد السفن الثمانية التي حولت الى (مستشفيات بحرية) وأدرك القائد العام للحملة بعد مضي ساعات فقط أنه من المحال أمام هذه المقاومة الضارية احراز أي نجاح أو أي تقدم. فقرر الانسحاب بقواته فورا، وأصدر أوامره الى سفن الأسطول الاسباني بالتجمع تحت حماية مدفعية الاسطول. وأخذت بعض الفرق في الانسحاب فورا ومعها بعض قطع المدفعية.

بدأ المجاهدون المسلمون هجومهم الليلي ـبعد أداء صلاة المغرب مباشرةـ من ليل ٨ـ٩ تموز ـيوليو ـ وهطلت امطار غزيرة زادت من صعوبة القتال، وشعر المجاهدون بمحاولات العدو للانسحاب فقطعوا عليها طريق انسحابها مرات عديدة، وانزلوا فيها خسائر فادحة، فيما كانت المدفعية تقصف مواقع الاسبانيين دون هوادة،

وعندما ارتفعت الاصوات معلنة أذان الفجر توقفت مدفعية الاسطول الاسباني عن الرمي. واندفعت قوة من المسلمين إلى داخل معسكر الصليبيين فوجدته فارغاً، ووجدت فيه الكثير من الاسلحة والذخائر والمدفعية مما يدل على أن القوات المعادية قد انسحبت على عجل فلم تتوافر لها فرصة من الوقت لحمل أسلحتها وامتعتها وعتادها. واستولت قوات المسلمين على ما تركه العدو من غنائم فوق أرض المعركة من الوسائط القتالية والبنادق و١٦ مدفعاً من النحاس وقطعتين من راميات القذائف. وجمع المسلمون المقذوفات التي ارسلتها المدفعية الاسبانية فبلغت (٤٠) ألف قذيفة. واعترفت المصادر الاسبانية بمصرع (١٩١) ضابطاً و(٢٠٨٨) جندياً في اليوم الأول من المعركة. في حين تذكر مصادر اخرى أن عدد القتلى الاسبانيين يرتفع الى (٤) آلاف قتيل. أما المصادر العربية فتذكر أن عدد قتلى الاعداء يبلغ (١٠) آلاف قتيل مقابل (مائتا شهيد) من قوات المسلمين.

أمضت سفن الاسطول الاسباني أيام ٩و١٠و١١تموز- يوليو- ١٧٧٥ وهي في عرض البحر، تنظم المستشفيات، ثم رفعت العلم الاسود علامة الحداد، ومضت خائبة في طريق عودتها إلى قواعدها. وقرر القائد العام للحملة الاسبانية، قصف مدينة الجزائر بالقنابل يوم ١٣ تموز - يوليو - انتقاماً لما نزل بقواته من الخسائر ،غير أن هيئة اركانه اقنعته بعقم محاولته وعدم جدواها، علاوة على ما تحمله من خطر التعرض لمدفعية الساحل القوية.

يذكر هنا أنه ما كادت المعركة تصل نهايتها حتى بلغت اعداد المقاتلين المسلمين الذين تدفقوا من كل انحاء البلاد اكثر من (١٥٠) ألفاً، بينهم (٦) آلاف من الاتراك، و(٣) آلاف بحار في الميناء (المرسى).

٨ - معركة بحرية جديدة

امام الجزائر (١٧٨٤)

ترك تدمير الحملة الاسبانية على الجزائر أثراً عميقاً على الطرفين المتصارعين، فمضت القوات الاسبانية في الإعداد لعملية جديدة على أمل أن تعوض بها عن هزائمها السابقة. وفي الوقت ذاته، أفادت الادارة الجزائرية من المعركة، فعقد مؤتمر ضم اعضاء القيادات البرية والبحرية بهدف استخلاص الدروس من العمليات السابقة. وتقرر اقامة مجموعة من القلاع والتحصينات الجديدة، وبناء سفن للمدفعية العائمة. ولم تمض اكثر من فترة وجيزة حتى أمكن اعادة التنظيم الدفاعي في البر واعادة تنظيم القدرة البحرية وتدعيمها. واتخذت كل الترتيبات لابقاء السفن الاسبانية على مسافة بعيدة جداً عن المدينة. اذا ما أقدمت على مغامرة جديدة.

مضت الادارة الاسبانية بدورها لاعادة تنظيم قواتها. واستطاع قائد البحرية (الاميرال انطونيو دي بارلكو) حشد قدرة بحرية تضم (١٣٠) سفينة حربية في سنة (١٧٨٤م) واعلن عن قيادة حملة صليبية جديدة، وأسرع البابا فنشر في يوم ١٨ حزيران (يونيو) من السنة ذاتها بلاغاً اعلن فيه أنه (وهب الغفران والبركة السماوية لكل مسيحي يشارك في هذه الحملة). وجاءت من البرتغال قوة بحرية لدعم الاسطول الصليبي، الذي غادر المياه الاسبانية ليصل إلى المياه

الاقليمية للجزائر يوم ٩ تموز ـ يوليو ـ وأخذ في الانتظام بتشكيل القتال. غير أن سفن الاسطول الجزائري لم تمهله طويلاً، فخرجت العوامات حاملة المدافع الكبيرة. وارغمته على البقاء بعيداً عن المدينة، وبحيث لا تصل قنابل مدفعيته إلى الجزائر.

بدأ الاشتباك الاول في يوم ١٢ تموز ـ يوليو حيث تقدمت سبعون سفينة اسبانية (من نوع الشالوب والتي هي مجردة من الخيام والصواري) فبرزت لها (٦٣) سفينة جزائرية من النوع ذاته، وكان منها (١٣) سفينة تحمل قاذفات القذائف و(٤٣) تحمل المدافع الثقيلة. وتقدمت السفن بعضها من بعض، واستعدت للقتال، وكانت السفن الاسبانية مدعمة بالحراقات وبالسفن الضخمة. واخذ الاسطولان المتعاديان يقومان بحركات التفاف حول خط متواز، وضمن حدود مجال عمل المدفعية. ولم يرغب الجزائريون البدء بالقتال. غير أن طلقة من مدفعية الحصون الجزائرية انطلقت في الساعة الثامنة لتأمر الجزائريين ببدء القتال. وأخذ الجزائريون على الفور برمي قنابلهم من طول الخط على السفن الاسبانية التي ردت بالمثل. واحاط بالمتحاربين دخان كثيف، وكانت القذائف الاسبانية غير محكمة، فكانت تتخطى خط السفن الجزائرية لتسقط على مسافة بعيدة في عرض البحر. وأصيبت ثلاث سفن اسبانية، فاضطرت الى الانسحاب من تشكيل القتال. وعندما ارتفعت سفن الدخان تبين أن الاضطراب قد هيمن على الاسطول الاسباني فيما كان الاسطول الجزائري محافظاً على مواقعه وعلى تنظيمه القتالي. وانسحبت السفن الاسبانية في الساعة (١١,٠٠) الى مركز تجمع الاسطول تحت حماية السفن الكبيرة. وبقي الاسطول الجزائري حتى الساعة (١٢,٠٠) قبل أن يعود إلى مركز تجمعه.

تجدد الاشتباك بعد ثلاثة ايام عندما اطلق القائد الاسباني طلقتين في الساعة (٣,٠٠) من فجر يوم ١٥ تموز - يوليو - فأخذت السفن تشكيل القتال. وفي الساعة (٦,٠٠) أطلقت السفن الجزائرية نيرانها، غير أن تشكيلها للقتال لم يكن منتظمًا. في حين كان تشكيل الاسطول الاسباني منتظمًا على نصف دائرة تحميه من الاجناب السفن الخفيفة. وبدأت المعركة الضارية التي استمرت حتى الساعة (٩,١٥) حيث انسحبت السفن الاسبانية (الشالوب) وبقيت الحراقات مستمرة في القذف العنيف. ثم قامت بالانسحاب، وبقي الاسطول الجزائري حتى الساعه (١٠,٠٠) وعاد بعدها إلى قواعده. وانفجر مدفع في احدى السفن فأغرقها ومات فيها ١٢ رجلاً، وجرح (١٤).

عادت سفن الاسطول الاسباني للقتال في الساعة (٨,٠٠) من يوم ١٧ تموز - يوليو - وقد انتظمت في تشكيل القتال على ثلاث مجموعات واجب الاولى الدفاع عن الاسطول وحمايته وخصصت فرقة لمجابهة الاسطول الجزائري، أما الفرقة او المجموعة الثالثة فواجبها قصف مدينة الجزائر. وبدأت هذه المجموعات - الفرق - بالقصف من الساعة (٨,٣٠) حتى الساعة (١٠,٣٠). غير أن عملية القصف لم تسفر عن نتائج كبيرة (مقتل جزائريين وجرح خمسة) نظراً لكون الرمايات غير دقيقة وغير محكمة. وفي هذا اليوم ظهر هلال شهر رمضان وبدأ المسلمون صومهم.

تقدمت السفن الاسبانية بعد ذلك في الساعة (٧,٠٠) من يوم ١٨ تموز - يوليو - في تشكيل القتال، وتصدت لها السفن الجزائريه، وبادرتها باطلاق النار، وبدأت الحصون الجزائرية في الوقت ذاته بارسال نيرانها ضد السفن الاسبانية التي فتحت نيران مدفعيتها في الساعة (٨,٠٠) وكان دخان مدفعية الاسبانيين يحجبهم عن انظار

الجزائريين، فتقدمت مجموعة من سفنهم نحو المدينة، وأصابت بمقذوفاتها جسر المرسى، فتصدت لها بعض السفن الجزائرية وارغمتها على الانسحاب واوقفت السفن الاسبانية قذف قنابلها في الساعة (٩,٣٠) بدون أن تلحق بالجزائريين اضراراً تذكر. غير ان ستة مدافع جزائرية انفجرت بين ايدي سدنتها فاستشهد (٥) رجال واصيب (٨) رجال بجراح.

وتقدمت السفن الاسبانية من جديد في الساعة (٦,٤٥) من يوم ١٩ تموز ـ يوليو ـ تحت حراسة بعض القطع الصغيرة وحراقتين. وجابهتها السفن الجزائرية في الساعة (٨,٠٠) واستمر الاشتباك المدفعي حتى الساعة (٩,٠٠) ثم انسحبت السفن الاسبانية إلى مركز تجمع اسطولها. وتقدمت بعد ذلك خمسة أو ست سفن جزائرية (شالوبات) نحو مركز الاسطول الاسباني، وهاجمته، فقاومتها سفينة الاميرال والسفن التي حولها، والقت عليها القنابل لكنها لم تحدث لها أدنى خسارة. ومات في هذه الوقعة رجلان وجرح خمسة رجال من الجزائريين.

وتم انسحاب الاسطول الاسباني نهائياً من المعركة يوم ٢٢ تموز ـ يوليو ـ مبتعداً عن مواقع القتال. وفي اليوم التالي كان هذا الاسطول يتجه نحو قواعده في الاندلس.

استشهد من جراء القصف نحو ثلاثين من المدنيين، اما خسائر الجزائريين العسكرية فكان معظمها بسبب انفجار المدافع التي يستعملونها، حيث أنهم لشدة حماستهم لمقاومة العدو لم يكونوا يتركون للمدفع بعد استعماله فترة كافية حتى تبرد حرارته، كما كانوا يبالغون في حشوه بالبارود لارسال المقذوفات لمسافة ابعد، ولهذا كانت المدافع

تنفجر احياناً. واستشهد منهم نحو المائة رجل من جراء هذه الانفجارات. ولم يعلن الاسبانيون عن خسائرهم، غير انهم ذكروا بأن مدافعهم قذفت الجزائر باكثر من (١٥١٥٠) مقذوفاً من عيارات مختلفة، لم تصب المدينة بخسائر تذكر.

لم تحقق هذه الحملة اهدافها، وحاولت الادارة الاسبانية التستر على فشلها الجديد بأنها سترسل حملة اقوى من كل حملاتها السابقة، غير أنها باتت مقتنعة، ومعها العالم المسيحي، أنه من المحال النيل من صمود الجزائر، فجنحت الى السلام والمهادنة، وأرسل الى الجزائر مندوبين (هما الكونت داسبلي، والاميرال مازاريدو) بمهمة عقد هدنة، ودارت مفاوضات طويلة انتهت يوم ١٤ حزيران (يونيو) ١٧٨٥ باتفاقية تقضي بالزام اسبانيا بدفع جزية معينة من المال للجزائر مقابل عدم التعرض لسفنها، وعلى أن تعاملها الجزائر معاملة الدولة المسالمة. غير أن هذه الاتفاقية لم تنفـذ بسبب تصميم الاسبانيين على الاحتفاظ بوهران والمرسى الكبير، وبسبب مماطلة الاسبانيين في تنفيذ بقية الشروط (على الرغم من موافقة الحكومة الاسبانية على الاتفاقية).

وكان لا بد من استئناف الصراع في البحر، وفي البر ايضاً، من اجل اخراج الاسبانيين من فوق تراب الجزائر.

٩- وأخيراً تحرير وهران
(١٧٩١ م)

لم يتوقف الصراع يوماً بين المجاهدين في الجزائر وبين اعدائهم المتمركزين في وهران والمرسى الكبير، وقد أخذ هذا الصراع اشكالاً مختلفة بداية من العزل والتطويق وحرمان الحامية الاسبانية من المواد التموينية وحتى الاستنزاف المستمر بطرائق الصراع المسلح. وتعرضت الحامية الاسبانية لنكبات كثيرة، ولمحن صعبة، وكان من ابرز ما جابهته الحامية الاسبانية تلك المعركة التي فرضها عليها حاكم (بايليك الغرب) محمد بن عثمان الكردي ـ المشهور بمحمد الاكحل لشدة سمرته ـ حيث أرغمها بعد فترة من الحصار على مغادرة المدينة (سنة ١٧٨٠) والاشتباك في معركة تصادمية خارج الاسوار انتهت بتدمير قسم كبير من الحامية. واستمرت بعد ذلك اعمال الحصار حتى ١٤ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٧٨٤م. حيث أمكن قطع الماء عن مدينة وهران. ثم تعرضت المدينة للهجوم يوم ٢٦ ايلول ـ سبتمبر ـ وامكن احتلال (البرج الاحمر) بعد تضحيات كبيرة ومعارك بطولية رائعة. واستمرت عمليات الصراع بين تصعيد وتهدئة، وبين توتر واسترخاء. حتى اذا ما كان ليل ٨ ـ ٩ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٧٩٠ حدثت هزة أرضية عنيفة في الساعة الواحدة صباحاً واستمرت ولفترة ثلاث دقائق، وانتهت بتدمير وهران تدميراً شبه كامل، وأصيبت الحصون

والقلاع والكنائس بأضرار بالغة. ومات تحت انقاضها ثلاثة آلاف نسمة من سكانها وجندها ـ ومن بينهم الحاكم العام الاسباني ـ بالنيابة ـ (دون نيكولا غارسيا) والتهمت النيران بعض السفن والاماكن الاخرى. وزاد من هول الكارثة انطلاق الاسبانيين للنهب والسلب، وهو ما اورده قائد الجيش الاسباني في تقريره للملك والذي جاء فيه: «ان بعض الرجال الذين لا أخلاق لهم، من أصحاب الحياة السافلة ـ من اسبانيي وهران ـ قد اغتنموا فرصة هذه الحادثة فأمعنوا في نهب الديار الغنية بصفة أفظع مما لو كان العدو قد قام بهذا النهب، ولم يبق للمستعمرين البائسين أي شيء مطلقاً. ورغم القسوة التي قابلنا بها هذه الاعمال اللصوصية، والعقاب الصارم الذي انزلناه بمرتكبيها، فإن الاشقياء لم يرتدعوا، واستمروا في اعمال النهب والسلب».

وحدث بعد ذلك مزيد من الهزات الارضية كان من اقواها ما حدث يوم ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ويوم ٦ كانون الثاني ـ يناير ١٧٩١. ولم يتوقف الصراع خلال ذلك، وتناقص عدد افراد الحامية الاسبانية حتى بلغ (١٥٢٦) رجلاً. تم توزيعهم على اكثر المواقع اهمية، في حين كان بقية الرجال من غير المقاتلين يعملون مع النسوة في اصلاح الحصون وترميم الثغرات التي تحدثها هجمات المجاهدين. وتلقت الحامية الاسبانية على اثر ذلك دعمًا مكوناً من (٧) آلاف مقاتل. واستمرت حروب الاستنزاف طوال فصلي الربيع والصيف من سنة ١٧٩١، تخللتها معارك طاحنة كان من ابرزها معارك ٣ـ٩ ايار ـ مايو ـ ومعركة يوم ٥ تموز يوليو...

عرفت اسبانيا أنه بات من المحال عليها الاحتفاظ بقاعدتي (وهران والمرسى الكبير) وتحولت هاتين القاعدتين إلى عبء يستنزف القدرة الاسبانية، فحاولت الحصول على شروط مناسبة للصلح،

واستمرت المفاوضات مع الجزائريين طويلاً إلى أن تم الاتفاق على عقد معاهدة يوم ٩ كانون الأول -ديسمبر -١٧٩١- تضمنت نصوصها ما يلي :

١- تنسحب اسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط .

٢- تدفع اسبانيا لخزينة الجزائر سنوياً مبلغ (١٢٠) ألف فرنك (ما يعادل ٢٤٠ ألف دينار جزائري) .

٣- ترجع اسبانيا للجزائر كل المدافع والقنابل والذخائر التي غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبير.

٤- تحمل سفينة اسبانية ، بصفة رسمية ، الى استانبول مفتاحين ذهبيين رمز استهلام وهران والمرسى الكبير مع جرتين من ماء عيون (وهران) للخليفة السلطان العثماني ، كبشرى بالفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الخلافة .

وتقبل الجزائر مقابل ذلك :

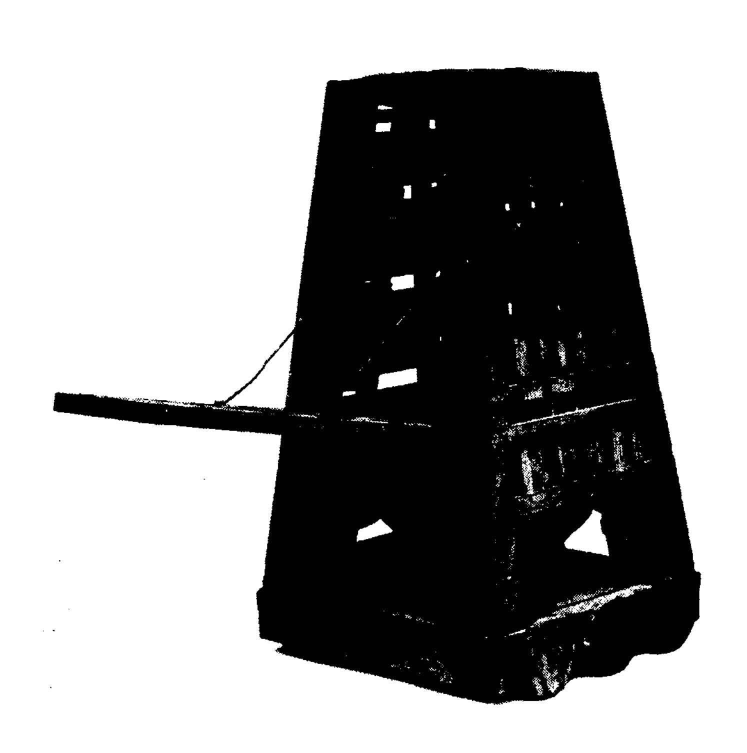
١- ان يكون لاسبانيا مركز تجاري في بلدة (جامع الغزوات) .

٢- وأن تبتاع من البلاد الجزائرية ثلاثة آلاف كيلة من القمح سنوياً .

٣- وأن تباشر صيد المرجان على الساحل الغربي الجزائري .

وبدأت القوات الاسبانية بالانسحاب يوم ١٧ كانون الاول

ـ ديسمبر ـ من تلك السنة، وتم الانسحاب نهائياً، بعد ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي (محمد بن مصطفى) الذي دخلها على رأس المجاهدين الجزائريين يوم ٢٤ شباط ـ فبراير ـ ١٧٩٢. وكان أول عمل قام به، بعد تحرير المدينة، هو بناء ه للمسجد الكبير ـ مسجد الباشا ـ وانصرف لبناء المدينة الخالدة، حتى تستأنف دورها التاريخي.



﴿الَّذينَ آمنوا وَهاجَروُا وجاهدوا فى سَبيل الله.والذين آووا ونَصروا أولَئك هم المؤمنون حَقاً لهمُ مَغْفَرةٌ وَرِزْق كريمٌ﴾.

(سورة الانفال ـ الآية ٧٤)

الفصْل الثّالث

١ـ الجزائر (المحروسة) على طريق البناء والقوة

٢ـ السياسة الاستراتيجية للجزائر

٣ـ المجاهدون والحروب الثوروية الاسلامية

١ـ الجزائر (المحروسة)

على طريق البناء والقوة

لقد فشلت كل المحاولات للنيل من الجزائر المجاهدة، وتحطمت كل اعمال العدوان على صخورها، وغرقت على سواحلها وفي مياهها كل الموجات الصليبية، ولم يكن تحرير وهران والمرسى الكبير اكثر من حلقة في صراع مرير لم يتوقف في يوم من الايام. وبقيت (الجزائر المحروسة) رائدة للجهاد في سبيل الله، تبني قوتها الذاتية وتقارع اعداءها، وكانت في ذلك كله خيرة معطاءة، فقوتها لها ولكل المسلمين والاعداء هم أعداء لها واعداء للمسلمين، هكذا كانت ابداً، ومضت الاعوام بعضها يمسك برقاب بعض والجزائر البعيدة عن مركز الخلافة الاسلامية تتبادل معها الدفاع وتنسق معها الجهد، وتحمل معها الاعباء القتالية في البر والبحر. وكانت الجزائر تمارس دورها بحرية تامة، وبمحض اختيارها وارادتها، إذ لم تكن علاقتها بالخلافة الاسلامية اكثر من علاقة اسمية، فكان الولاة يستقلون بادارة الجزائر الداخلية تمام الاستقلال، لا تربطهم بالدولة العليا سوى روابط الود والاعتراف بالحماية، وهي رابطة اشبه ما تكون بروابط الاحلاف. بل ان هذه العلاقة او الرابطة كثيراً ما تترك للجزائر الحرية لانتهاج سياسة خارجية مغايرة لتلك التي تلتزم بها

الخلافة، وعلى سبيل المثال، فقد سبقت الاشارة إلى الموقف الذي اتخذته الجزائر تجاه فرنسا التي كانت قد ارتبطت مع الخلافة العثمانية بمعاهدة (الامتيازات القنصلية) وجاءت الجزائر لترفض منح فرنسا هذه (الامتيازات) لانها وجدتها تتناقض مع مصلحتها. وفي مناسبات اخرى كانت الجزائر تفرض على دار الخلافة (استانبول) السياسة المناسبة للجزائر، وعلى سبيل المثال، فعندما حاولت اسبانيا التقرب من الخلافة لعقد معاهدة صداقة وسلام، تصدت الجزائر لهذه المحاولة واحبطتها، واعلنت بصراحة ووضوح انه: (لا سلام مع اسبانيا طالما بقيت قواتها في وهران والمرسى الكبير). وايدت دار الخلافة الموقف المبدئي للجزائر ودعمته وتم بذلك احباط الجهود الاسبانية.

كانت علاقة الجزائر بدار الخلافة اشبه ما تكون بعلاقة (الاحلاف) فكانت قوة الجزائر في قوة الخلافة، وكانت قوة الخلافة في قوة الجزائر. فلا غرابة بعد ذلك أن تكون العلاقة الحميمة قائمة على الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل. ولا غرابة في أن تترك الخلافة للجزائر النظام الذي تختاره، لادارة امورها. ولا غرابة ايضاً في قبول كل ما يصدر عن العاصمتين بروح الاخاء، حتى لو كان في بعض الممارسات خروجاً على ما هو معروف من علاقات بين الاحلاف المتشاركين في السراء والضراء.

لقد أسهبت المصادر الغربية في وصف تلك المرحلة التاريخية، لا سيما خلال الفترة الممتدة بين منتصف القرن السابع عشر وبداية القرن التاسع عشر، وأمعنت في الاساءة إلى قادة الجزائر وحكامها وشعبها، من خلال وصف الحكام (بالمزاجية وعدم الاستقرار وقبول الرشاوى بل حتى فرضها بمقادير معينة واتساع نطاق الفساد على كل

المستويات المسؤولة[1]). وتتجاهل تلك الكتابات روح العصر وطبيعته، وليس المجال هنا هو مجال الدفاع (عن الفساد) إذ أن هذه الظاهرة المرضية المرافقة دوماً لعهود الانحطاط تبقى ابداً وهي تحمل صفة (الفساد). غير أن تركيز الاحكام على السلبيات بدون إظهار للايجابيات المقابلة يشكل بدوره ظاهرة من ظواهر (الفساد). ولقد بات من الثابت أن الجزائر بلغت في طليعة القرن التاسع عشر مرتبة من القوة وضعتها في مركز أقوى دول البحر الأبيض المتوسط، وكانت مدينة الجزائر هي أحسن ميناء على ساحل البحر بقلاعها المتينة ومدافعها الضخمة وجنودها البواسل. وكان الاسطول الجزائري يزيد على (٧٢) قطعة حربية ممتازة كبيرة الحجم، و(١٤٠) سفينة متوسطة الحجم. وكانت كل هذه السفن الحربية مسلحة بما تحتاجه من المدافع والذخائر والجند، وبلغ عدد البحارة الجزائريين اكثر من (٣٠) ألف بحار اشتهروا بكفاءتهم القتالية العالية وتدريبهم الرائع. ولقد كانت تلك القدرة البحرية المتكاملة هي عدة الجزائر للانتشار في البحر الأبيض المتوسط، واتخاذ الملاحة صناعة وطنية، والقرصنة مهنة تجارية. ولكن وعلى الرغم مما كان يصيبه أهل الجزائر من المغانم الضخمة عبر غزواتهم البحرية، فانهم لم يكونوا يعتبرون أن ما يحصلون عليه من ربح طائل أو ثروة ورفاهية عظيمتين هما نوعاً من السرقة أو النهب، بل انهم كانوا يعدونها نوعاً من الحروب بين المراكب التجارية أينما وجدت.

---

(١) يمكن في هذا المجال مطالعة كتاب (العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة)١٧٧٦- ١٨١٦-لمؤلفه اسماعيل العربي-اصدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر - ١٩٧٨ والذي يتضمن كشفاً دقيقاً عن العلاقات التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية.

ولم يكن الجزائريون يهاجمون أية سفينة يظفرون بها في عرض البحر، وانما كان على جميع الدول البحرية التي تريد أن تجتاز بواخرها البحر الأبيض المتوسط بأمان أن ترتبط مع داي الجزائر بمعاهدة صداقة، وأن ترسل قنصلاً لها يقيم في مدينة الجزائر، وتدفع لحاكمها ضريبة سنوية محددة مقابل تمتعها بالحرية البحرية. وهكذا كانت انكلترا وفرنسا والدانمرك وهولاندا وسردينيا والبرتغال والسويد والنروج وهانوفر واسبانيا والولايات المتحدة الاميريكية ترتبط بمعاهدات رسمية مع (داي الجزائر) وترسل اليه كل عام الهدايا الثمينة، وتطلب وده ومصادقته وبذلك كانت تضمن عدم تعرض بواخرها للضرر أو الأذى. وبذلك حصلت الجزائر على اعتراف جمع دول العالم بها كدولة مستقلة، تتسابق الدول لاكتساب صداقتها والتحالف معها، والاعتراف لها بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط. ومن ذلك تلك المعاهدة التي عقدت في ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٥م بين الولايات المتحدة الامريكية والجزائر، وتضمنت التصريح للسفن الامريكية بممارسة التجارة مع الجزائر مقابل دفع الرسوم المعتادة، واعفاء الادوات البحرية والحربية من هذه الرسوم على أن يصرح للسفن الجزائرية بمثل ذلك مقابل اجازات سفر لها من القنصل الامريكي في الجزائر. وليس اعلان الحرب من قبل الجزائر على امريكا في ١٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٢٥ بسبب سوء استغلال امريكا للاتفاقية السابقة، ثم عقد صلح جديد، الا برهاناً على استقلالية الجزائر من جهة، وتأكيداً على ما بلغته من القوة في تلك الفترة ـ من جهة ثانية ـ[1] واذن، فالامر

---

(١) انظر في ـ قراءات ٢ ـ في آخر الكتاب ـ نصي الرسالتين المتبادلتين بين داي الجزائر والرئيس الامريكي في هذا المجال.

الذي لا يقبل الجدل هو أن حكومة الجزائر كانت تفرض ارادتها، وتعقد المعاهدات، وتعلن الحروب، وتدافع عن مصالح الجزائر دون الرجوع إلى تركيا أو غيرها من بلدان العالم.

وبلغت الجزائر مرحلة من التطور الاجتماعي والاقتصادي حسدتها عليه الدول الاوروبية الغربية، ووصلت الجزائر من القدرة الاقتصادية ما جعلها تقدم القروض والمساعدات الى فرنسا حتى بلغت ديون فرنسا للجزائر مبلغ (٧) ملايين فرنك إفرنسي (في سنة ١٧٩٨م) وأدى ذلك الى زيادة عدد السكان، حيث بلغ عدد سكان الجزائر عشرة ملايين، وعدد سكان العاصمة الجزائر (٥٠) ألف نسمة. وكانت الجزائر تعتمد في اقتصادها على الزراعة واستخراج الحديد والرصاص والملح من المناجم بالاضافة إلى التجارة والغزو (القرصنة). وعرفت الجزائر في العهد العثماني ـ على خلاف ما هو شائع ـ تطوراً ثقافياً وعلمياً مذهلاً بحيث كان كل جزائري تقريباً يعرف القراءة والكتابة، ويعود الفضل ذلك الى بقاء التعليم حراً من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرائقهم الخاصة ووسائلهم الذاتية تعليم القرآن الكريم والحديث والعلوم العربية الاسلامية، لأن دراسة هذه العلوم هي السبيل الى معرفة جوهر الدين وفهم القرآن والسنة. وبقي تعليم القرآن الكريم اساس التعليم في الجزائر ـ كما هو في كل اقطار العالم الاسلامي ـ سواء كان هذا التعليم ابتدائياً أو ثانوياً أو عالياً. وكانت المدارس على اختلاف مستوياتها تمول وتغذى بالاوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء، وفي بعض الأحيان كان يحبسها موظفون كباراً في الدولة كعمل من اعمال الخير. فكان هناك أملاك خاصة وعقارات وأراضي يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف

المعلمين وتوفير المساكن للطلبة، فكانت الأوقاف هي الاساس في تدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين. وكانت الأوقاف ترعى التعليم بمراحله الثلاثة الابتدائي والثانوي والعالي.

فبالنسبة للتعليم الابتدائي كان كل طفل بين السادسة والعاشرة يذهب إلى المدرسة. والملاحظ أن هذا بخصوص الاطفال الذكور، أما الإناث فلا يذهبن الا نادراً إلى المدارس، ولكن اصحاب البيوتات الكبيرة، فكانوا يجلبون استاذاً معروفاً بصلاحه وعلمه لتعليم البنات. وكانت هناك خيمة تدعى (الشريعة) في كل قرية مهما صغرت، من أجل تعليم الاطفال، ويشرف عليها معلم (مؤدب) يختاره سكان القرية لهذه الغاية. أما في المدن والقرى الكبيرة، فقد كانت هناك مدارس تدعى المكتب (مسيد) وكانت غالباً ملحقة بالوقف، والى جانب ذلك كان كل جامع يضم مدرسة للتعليم ايضاً. أما أهل البادية، فكانوا يرسلون أطفالهم للتعليم في المدن حيث يقيمون عادة مع عائلات صديقة أو يصرف عليهم مجاناً من الأوقاف. أما المدن الكبرى، فكان عدد المدارس الابتدائية فيها كبيراً، بحيث ضمت (قسنطينة) في سنة ١٨١٠ اكثر من (٨٦) مدرسة ابتدائية، كان يختلف إليها حوالي (١٣٥٠) تلميذاً. وكان في تلمسان حوالي (٥٠) مدرسة ابتدائية في تلك الفترة ذاتها. ومدة التعليم الابتدائي حوالي أربع سنوات، يتعلم الطفل خلالها مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن وأركان الاسلام واصول الدين. ينتقل بعدها الطلاب إلى المدارس الثانوية ـ في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالاوقاف.

وكان التعليم الثانوي مجاني أيضاً. وكان للمدرس في الثانوي مكانته الخاصة، بحيث كان الاهالي يتكفلون بمتطلباته الحياتية وتقديم الخدمات له من اجل مساعدته على التفرغ وإعداد الدروس. وكان في



مجلس علمي بمسجد كتشاوه قبل تهديمه على يد الفرنسيين

العاصمة وقسنطينة وتلمسان جوامع ومدارس وزوايا لايواء التلاميذ. وعلى سبيل المثال فقد كان في (قسنطينة) ٣٥ جامعاً و٧ مدارس، وكان (١٥٠) تلميذاً من (٧٠٠) يحصلون على أجرة سنوية من دخل الأوقاف. وكان معظم هؤلاء التلاميذ من سكان الأقاليم، وقد أعدت لهم زوايا خاصة لسكناهم بلغت ست عشرة زاوية. وقد كان في العاصمة ست زوايا لهذا الغرض ثلاثة منها لعرب الغرب واثنتان لعرب الشرق أما الأخيرة فقد اعدت لايواء المدرسين في العاصمة والذين ليس لهم عائلات مقيمة. أما تلمسان، فقد كان فيها عدد كبير من هذه الزوايا. كما كانت فيها مدرستان إحداهما مدرسة الجامع الكبير، والاخرى مدرسة ولد الامام. وفي ضاحية تلمسان كانت مدرسة قرية (عين الحوت). ولم تكن الزوايا مقصورة على المدن، بل كانت هناك زوايا في الارياف تقام تخليداً لأحد المرابطين، ويقام بجانبها جامع للصلاة وبئر للشرب والوضوء. وتخصص الأرض لهذه الزوايا الريفية، فيحرثها الأهالي، ويستعمل دخلها لمساعدة المدرسين والطلبة. ويخصص أهل الخير جزءاً من محصولهم السنوي للزاوية التي توحد في منطقتهم. وكان يتلقى العلم في الثانوي حوالي (٣) آلاف تلميذ في كل اقليم من اقاليم الجزائر الثلاثة.

لم يكن هناك فصل واضح بين التعليم الثانوي والعالي. ويسمى الاستاذ الذي يدرس في التعليم العالي (عالماً). أما عدد الطلبة فكان يتراوح بين ٦٠٠ و٨٠٠ طالب في كل اقليم. وكانت الدروس العالية تعطى في الزوايا وأهم الجوامع. وكانت مواد التعليم العالي تشتمل على النحو والفقه (الذي يشمل العبادات والمعاملات) والتفسير والحديث والحساب والفلك بالاضافة إلى التاريخ والتاريخ الطبيعي والطب.

تلك هي لمحات عن الحياة في الجزائر سياسياً وعسكرياً وفكرياً، خلال مرحلة (بناء الجزائر) الحرة المستقلة، ولقد خاضت الجزائر المجاهدة صراعاً مريراً على جبهة الاعداء الخارجيين وعلى جبهة البناء الداخلي، في اطار من التكامل. فدعمت وحدتها الداخلية بانتصاراتها الخارجية وحققت انتصاراتها الخارجية بفضل وحدتها الداخلية. وكان في ذلك انتصارها الاكبر. وبقي البناء الداخلي والصراع الخارجي مرتبطاً بالجامع والزاوية (المدرسة). فكان هذا (الجامع) هو القاعدة القوية والاساس الراسخ لقدرة المجتمع الاسلامي ووحدته، على الرغم من كل ظواهر التمزق التي اجتاحته، والتي عرف المغرب العربي الاسلامي منها قدراً ربما زاد على كل ما عرفته اقطار العالم العربي الاسلامي الاخرى.



الحياة اليومية في منزل جزائري أيام العثمانيين

٢- السياسة الاستراتيجية للجزائر

يظهر العرض السابق لمجموعة الاحداث التي تعرضت لها الجزائر المجاهدة عبر سنوات التكون والصراع المرير مجموعة من الحقائق، لعل من ابرزها:

١- تكوين تحالف مع الخلافة العثمانية هدفه تنسيق الجهد العسكري على كافة المستويات.

٢- الاضطلاع بواجب الجهاد في البحر بصورة رئيسية، وهكذا فبينما كانت قوات الخلافة العثمانية تخوض صراعها المرير في البر - الاوروبي - بصورة رئيسية،كانت الجزائر المجاهدة تقود الجهاد على الجبهات الاخرى (الاندلس والسواحل الجنوبية لاوروبا).

٣- نظراً للموقع الجيواستراتيجي للجزائر، فقد اخذت على عاتقها الجهاد ضد اسبانيا بالدرجة الاولى وضد كل الدول التي ترفع راية الصليبية ضد الاسلام والمسلمين.

٤- عرفت الجزائر انه من المحال عليها الاضطلاع بدورها ان لم تكن مطمئنة إلى جارتيها في المشرق والمغرب. فعملت في البداية على خوض الصراع ضدها، ثم انتهى الأمر بتحقيق التكامل عندما أمكن

ربط هذين الاقليمين بالخلافة العثمانية ـاو بالاحرى ـ بسياسة استراتيجية واحدة.

لقد انعكست هذه السياسة الاستراتيجية على مستوى العمليات بمجموعة من الظواهر ابرزها:

١ـ تنسيق الجهد العسكري في العمليات المشتركة، حيث عمل الاسطول الجزائري في مناسبات كثيرة، منذ ايام ذوي اللحى الشقراء ـبربروس ـ وحتى عهود بعيدة تمتد إلى اكثر من ثلاثة قرون على دعم الاسطول العثماني في العمليات الكبرى. وتولى قادة الجزائر في مناسبات كثيرة قيادة وزارة البحرية (قبودان باشا) واسهمت السفن الجزائرية بمجموعة المعارك التي تطلبت جهداً كبيراً (معركة ليبانتي) (الهجوم على طولون) الخ... كما قام الاسطول العثماني بالمقابل بدعم الجزائر في كل مناسبة ظهرت فيها الحاجة لمثل هذا الدعم (أثناء هجمات الاسبانيين) على المدن في المغرب العربي الاسلامي. وكانت الخلافة العثمانية تقدم للجزائر باستمرار الاعتدة الحربية وما تحتاجه لدعم قدرتها القتالية بشرياً، وبوسائط القتال. وجدير بالذكر ان هذه السياسة الاستراتيجية ـالبحرية ـ لم تكن الا ظلالاً متقدمة للسياسة الاستراتيجية التي وضعها (معاوية بن أبي سفيان) وطورها الامويون من بعده والتي تعتمد على تنظيم مجموعة من الاساطيل في الشام ومصر والقيروان ـتونس ـ والاندلس. تقوم باعمال مستقلة احياناً. وتلتقي بعضها مع بعض للقيام بتنفيذ العمليات الكبرى وكان تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية هو الذي ضمن للعرب المسلمين في البداية دعم فتوحاتهم، وهو الذي ضمن للجزائر المجاهدة وللعثمانيين من بعد مجابهة الحملات الصليبية بقوة وفاعلية، واحراز الانتصارات الحاسمة.

٢ـ اعطاء افضليات لمسارح العملياتـ إذ كان من المحال على الجزائر خوض الصراع الشامل ضد كل القوى الصليبية في وقت واحد. ولهذا كان على الادارة الجزائرية، توجيه الجهد في بعض الاحيان الى اعمال (القتال البحري) واعطاءها الافضلية الاولى، للانتقال بعدها الى حروب الاستنزاف ضد القواعد التي اقامها الاسبانيون فوق أرض المغرب العربي ـ الاسلامي (خاصة وهران والمرسى الكبير) للعمل بعد ذلك في دعم الجهد ضد قوات الاعداء في المغربين الادنى والاقصى (تونس والمغرب). وهذا ما يفسر بقاء القواعد الصليبية لفترات طويلة فوق أرض المغرب العربي الاسلامي، في حين كانت اعمال القتال في البحر او الغزوات مستمرة على الجبهات الاخرى.

٣ـ لم تتمكن الجزائر ـ بحكم خبراتها وتجاربها ـ التمييز بين القواعد الاجنبية فوق أرض اقليم الجزائر، وبين تلك القواعد في المغربين الادنى والاقصى، وذلك لسببين متكاملين اولهما أن وحدة التراب ووحدة الدين تجعل الجهاد ضد كل عدوان اجنبي على المسلمين وعلى أرضهم هو واجب على كل مسلم، لا تمييز لحدود في ذلك، وثانيهما أن هذه القواعد لا تتهدد الاقطار الاسلامية المجاورة وحدها وانما تتهدد الجزائر ذاتها ايضاً. ومن الملاحظ ان هذه الملامح الاولية قد ارتسمت بصورة اكثر وضوحاً مع تطور الصراع ضد الاعداء ـ بما في ذلك ظروف الاحتلال الافرنسي للمغرب العربي ـ الاسلامي ومقاومته. وهذا ما فرض بدوره العمل على تنسيق التعاون مع الاقطار المجاورة في مناسبات كثيرة.

٤ـ لقد خاضت الجزائر حروبها في اطار من (الدفاع الاستراتيجي): يؤكد ذلك وقوع العدوان على أرضها، واحتلال

القوات الصليبية لقواعدها الساحلية، وقد امكن تحرير هذه القواعد واحباط اعمال العدوان. ومن هنا فقد كان من المحال على الجزائر، التوقف دائماً عند حدود انتظار وقوع العدوان لاحباطه، ولقد اشارت مصادر كثيرة بصورة غير واضحة في بعض الاحيان وبصورة واضحة تماماً في احيان اخرى (كما كانت عليه عمليات الاخوة ذوي اللحى الشقراء بربروس) إلى أن التصدي لسفن الاعداء واستنزاف قدراتهم البحرية، والاغارة على المدن الساحلية للافرنج الصليبيين لم تكن الا حرباً دفاعية ـ اكثر منها انتقامية ـ أو في افضل الاحتمالات دفاعية انتقامية. واذا ما تطورت هذه الاعمال الى ما يطلق عليه اسم (القرصنة) فذلك بنتيجة روح العصر التي جاءت من الدول الغربية البحرية، ووجد فيها المسلمون اداة دفاعية متقدمة تدعم اساليبهم في (دفاعهم الاستراتيجي) ويؤكد جدول مسيرة الاحداث في اطارها الزمني هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة.

٥ـ لقد ادى اتساع افق الصراع، واتصال الاعمال القتالية، إلى حقيقتين برزتا خلال معظم الاعمال القتالية للقوات الجزائرية. اولاهما: تكوين خبرات قتالية رائعة على كافة المستويات، وثانيتهما الاستعداد الدائم للقتال. وقد برزت اهمية الخبرات القتالية في مناسبات كثيرة، وكان لها الدور الاساسي والحاسم في (حوار الارادات المتصارعة) حيث خرجت الارادة الجزائرية وهي منتصرة باستمرار نتيجة ثقتها (بحتمية النصر) وايمانها المطلق بعدالة قضيتها ومعرفتها الثابتة بما يتوافر لها من القدرات والامكانات. وكان الاستعداد الدائم للقتال هو الذي احبط الاعمال العدوانية فوق المياه الاقليمية للجزائر، وهو الذي دمر اطماع الصليبيين فوق رمال الجزائر وصخورها. ولا حاجة بعد ذلك لربط هذين العاملين ـ المبدأين ـ

بمفهوم الجهاد في العقيدة القتالية الاسلامية التي كان لها الفضل الاساسي في تحقيق التكامل في اسس فن الحرب.

٦- وأدى اتساع افق الاعمال القتالية ايضاً الى اعتماد المجاهدين على (خفة الحركة الاستراتيجية) في البحر، وخفة حركة القوات في البر. وقد يصاب المرء بالذهول عند استعراض دقائق الاعمال القتالية، ومتابعة ما تخللها من تفاصيل عن تحرك القوات للالتحاق بميادين القتال البعيدة والقاصية، سواء في البر أو البحر، والانتقال من مسرح عمليات الى مسرح عمليات آخر. وهنا يظهر ايضاً دور الخبرات القتالية المتوارثة منذ الفتوح الاسلامية عامة، وفي ايام الصراع على جبهة الاندلس بصورة خاصة، حيث اضطلع المرابطون والموحدون وبنو مرين وأبناء المغرب العربي الاسلامي عامة بالاشتراك في حمل اعباء الجهاد على كافة الميادين المتناثرة والمتفرقة والمتباعدة.

٧- ربط جهد الاعمال القتالية بالجهد الاقتصادي. وتلك ظاهرة لا يمكن تجاوزها عند التعرض لمجموعة الحروب التي خاضتها الجزائر ضد اعداء الدين. إذ لم تكن المغانم الا وسيلة لحرمان العدو من امكاناته ولتدعيم قدرات المسلمين في الوقت ذاته. وهناك شواهد لا نهاية لها تؤكد ان الجزائر لم تكن تبغي مغنماً-من اعمال القرصنة الموصوفة- الا للحصول على المزيد من القدرة القتالية، وبكلمة اخرى، فقد كانت الجزائر تكتسب قدرتها من خلال إضعاف اعدائها، وهناك معاهدات للصداقة تنص بوضوح على تقديم الدول التي تصالحها الجزائر سفناً حربية واعتدة قتالية ومدفعية وذخائر مقابل ما تضمنه لها الجزائر من الحماية أو مقابل ما تتبادله معها من السلع التجارية أو مقابل ما تقدمه لها من امتيازات في المعاملة (صيد

المرجان). وتجدر الاشارة هنا ايضاً إلى أن هذه الظاهرة بقيت ملازمة للسياسة الاستراتيجية الجزائرية في مختلف العهود.

٨ـ وضوح الهدف في كل مرحلة من مراحل الصراع،واختيار طرائق العمليات المناسبة لبلوغ هذا الهدف. وقد حدد الجزائريون منذ البداية هدفهم ببناء الجزائر القوية، وحددوا هدفهم بتحرير بلاد المسلمين في المغرب العربي - الاسلامي من اعداء الدين، وحددوا هدفهم ببناء العلاقات داخلياً واسلامياً ودولياً بما يضمن لهم تحقيق طموحاتهم. فكانت حروبهم نوباً، بين حروب الاستنزاف والحروب التصادمية، وبين الحروب الهجومية والحروب الدفاعية، بين الحروب الثوروية والحروب النظامية. وقد يكون من الخطأ الفادح -بل وحتى الجحود- القول بأن التنوع في اساليب هذه الحروب وطرائقها قد جاء بنتيجة ردود فعل تجاه المواقف التي جابهتها الجزائر في أصعب ايامها، والدليل على ذلك هو أن الجزائر قد رفضت في مرات كثيرة عقد معاهدة صلح أو هدنة مع اسبانيا قبل الجلاء عن وهران والمرسى الكبير، ورفضت ايضاً منح فرنسا امتيازات لا تتفق مع مصلحة الجزائر، ورفضت عقد المعاهدات مع دول مختلفة الا بالشروط المناسبة للجزائر، ومن خلال هذا الوضوح في الهدف، ومن خلال التصميم العنيد على بلوغه، تم اختيار الاساليب المناسبة لخوض الصراع في كل صراع، بما يتناسب والهدف المرحلي او الهدف النهائي.

لقد حددت هذه الاسس الاستراتيجية، وانعكاساتها على افق الاعمال القتالية، طبيعة الصراع الذي تجابهه الجزائر، والذي تشابكت فيه العوامل الجيو- استراتيجية، بالعوامل الجغرافية والديموغرافية -السكانية- مع العوامل الاقتصادية والسياسية لتشكل

بمجموعها (خصوصية) الصراع الجزائري وهو صراع تمثل في إطار تحد ديني قبل كل شيء، بدأ من الاندلس وانتهى بالمغرب العربي الاسلامي وحملت الجزائر المجاهدة راية الريادة فيه.

قد يكون من المتوقع بعد ذلك أن تخوض الجزائر صراعها في إطار (حروب الايمان). وقد يكون من المتوقع بعد ذلك ايضاً أن تكون العقيدة القتالية معتمدة في اصولها وفروعها على العقيدة الدينية الاسلامية.

لقد قيل بأنه (ما من عامل ألهب التعصب الاسلامي مثل ذلك التعصب المسيحي) وقد يكون ذلك صحيحاً في بعض المواقف وفي بعض الاحيان غير أن العقيدة القتالية التي طبقتها الجزائر لم تكن معتمدة على التعصب بقدر اعتمادها على المبدأ ـ بحسب كل الشواهد المتوافرة ـ ولم يتمكن التعصب المسيحي من اخراج المسلمين المجاهدين عن اساليبهم وطرائقهم. وفي الوقت ذاته فإن حروب الايمان هذه لم تعتمد على الحقد بقدر اعتمادها على الغضب، إذ كان من المحتمل أن يؤدي الحقد لو تفجر إلى نتائج مغايرة تماماً لما حدث، في حين جاء الغضب للاسلام وعلى الاسلام، فطهر النفوس ووحدها ودفعها الى (الجهاد في سبيل الله) فلا غرابة اذن في ملاحظة التحولات الحاسمة في مواقف المجاهدين ـ وفقا لما ابرزته عملية استعراض الاحداث في الفصل الثاني ـ والانتقال بصورة تدرجية، من مواقف التشرذم (القبلية الجاهلية) إلى مواقف الوحدة الاسلامية الصلبة في الداخل والخارج والتي امكن بفضلها تحقيق النصر في (حروب الايمان).

٣ـ المجاهدون والحروب الثوروية الاسلامية

أظهر العرض الوجيز لمسيرة الاحداث ـ الفصل الثاني ـ ذلك الدور الرائع الذي اضطلعت به جماهير الشعب العربي المسلم في رفع راية الجهاد في سبيل الله، في البر والبحر، بصورة عامة، وما قام به المجاهدون فوق أرض الجزائر الحرة بصورة خاصة، في ظروف الدفاع عن أرض الاسلام والمسلمين، وفي احباط اعمال العدوان ودحرها. فقد كانت حشود المجاهدين هي القوة الحقيقية التي تحسم الصراع في كل مرة تتعاظم فيها قوى العدوان، فتتسارع إلى ميادين الجهاد في كل مرة يرتفع فيها صوت حاكم الجزائر معلناً (الجهاد في سبيل الله). وقد سجلت المصادر التاريخية في مناسبات كثيرة العبارات التالية:

«وما كاد المجاهدون يسمعون باقتراب الاعداء ـ الكفار ـ حتى يندفعون الى ميادين الجهاد حتى تضيق بهم الأرض».

و«كان المجاهدون يقبلون ومعهم نساءهم واولادهم، الذين يشتركون معهم في انقاذ الجرحى ودفن الموتى وفي المشاركة باعمال تحصين الأرض».

تلك هي الصورة الرائعة والخالدة لمفهوم (الجهاد في سبيل الله) منذ ظهر الاسلام على الأرض، والتي تكررت بأوضح معانيها وأسمى

اشكالها في مجابهة ما تعرضت له الجزائر ايام البلوى القاسية والصعبة. وهذه النفرة الاجماعية هي التي تأخذ في الحروب الحديثة اسم (الحروب الشعبية) والتي حدد المسلمون اشكالها ومضامينها من قبل أن يعرف العالم اسم (الحروب الشعبية) بقرون طويلة.

؛

وتجدر الاشارة إلى أن العالم قد عرف منذ ايام الحروب البدائية، وحتى في العصر الحديث بعض اشكال هذه (النفرة الاجماعية) فقد اشتهرت الفتيات الامازونيات باشتراكهن في الحروب وسبقهن في مجالات حمل السلام، كما أبرز عرض الاعمال القتالية قيام النسوة الاسبانيات وحتى الاولاد بمشاركة القتاليين في اعمال الحصار وترميم الحصون والثغرات. غير أن هناك ثمة فارق كبير بين هذه النماذج وبين مفهوم (النفرة الاجماعية في الجهاد) والتي تعتمد على مجموعة من الخصائص أبرزها: ١ـ الطوعية في الاقبال على القتال. ٢ـ الاستعداد الدائم للقتال. ٣ـ الاستجابة الاجماعية والموحدة لنداء الجهاد. ٤ـ ربط مفهوم الجهاد بهدف نبيل (الشهادة أو النصر) والذي يرتبط بالعقيدة الدينية الاسلامية.

ولقد استطاعت الكنيسة في الحقيقة ـ عبر الحروب الصليبية ـ تكوين مفاهيم مشابهة كمفاهيم المسلمين في الجهاد، بل انها عممت استخدام ذات العبارات التي كان يستخدمها المسلمون ويطلقونها على اعدائهم (الكفار) و(أعداء الدين) و(الجهاد) و(الغفران) و(الجنة) و(الخلود). غير أنه كان من المحال الاحتفاظ (بدفء هذه المفاهيم) و(حرارتها) في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد والحض على القتال. وهذا ما اكدته وابرزته اعمال المجاهدين عند الاندفاع لدعم المسلمين المجاهدين في الاندلس، ثم في الدفاع عن أرض الاسلام

عند انتقال العدو للهجوم على أرض المغرب العربي ـ الاسلامي. وتبرز عند هذه النقطة مجموعة من النقاط التي يجدر التوقف عندها من جديد، وأهمها:

١ ـ الموقف من اعداء الداخل ـ اعداء الدين ـ.

٢ ـ قوة تيار الجهاد وعمق مفاهيمه.

ولقد ظهرت فوق سطح عالم الفتوحات الاسلامية بعض الانتكاسات التي تعود في جذورها الى مفاهيم (القبلية ـ الجاهلية). غير ان هذه الانتكاسات بقيت محدودة الخطورة، محدودة التأثير، محدودة النتائج. غير أن هذه الظاهرة أخذت في رسم أبعاد خطيرة على ساحة الصراع في الاندلس، وهو الأمر الذي أدى الى سقوط طليطلة، وتعاظم قدرة حكام الاندلس واستنصار المسلمين بهم على اخوانهم في الدين. الأمر الذي ضاعف من خطورة التمزق الداخلي، والذي استطاع المعتمد بن عباد علاجه بانتصاره (بابن تاشفين). وعرف الصليبيون من خلال ذلك أن قوة المسلمين تكمن في وحدتهم فانطلقوا للاسهام بتمزيق هذه الوحدة، وكان لهم دور كبير فيها. حتى اذا ما نقلوا صراعهم الى أرض المسلمين في المغرب العربي ـ الاسلامي. انطلقوا إلى اعتماد هذه الوسيلة للتفريق بين المسلمين وضرب بعضهم ببعض ثم ضربهم جميعاً. وكانت الجزائر المجاهدة قد أدركت هذه الحقيقة واستوعبتها فلم تعد تقبل مهادنة اعداء الداخل، وكانت في بعض الاحيان اكثر قسوة في القضاء عليهم وابادتهم من قسوتها على الاعداء ذاتهم ادراكاً منها بان اعداء الداخل هم أشد خطراً من اعداء الخارج على الدين وعلى قضية الجهاد. وقد عالج أئمة المسلمين هذا التطرف ونجحوا في كبحه غير انهم لم يتساهلوا ابداً في معالجة

(المتعاونين مع العدو). ولقد ظهرت نتائج ذلك بسرعة مذهلة فقد أمكن توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين، والانطلاق منها بحزم لمجابهة الاعداء الخارجيين وأدى ذلك بدوره إلى ضعف اعداء الداخل وانهيارهم. حتى انه في كثير من المعارك كان المقاتلون تحت راية المتعاونين مع الاسبانيين، ينفصلون عنهم بمجرد الاشتباك في المعركة، او يعتزلون القتال ضد المسلمين في أضعف الحالات.

ولقد كان الولاء لزعيم العشيرة أو الملك، وهو أمر مرتبط بجوهر الدين، هو العامل الاساسي في الانتكاسات وهو نزوع جاهلي، جاء المبدأ الخالد (لاولاية لكافر على مسلم) فعمل على الغائه. وقد برز هذا المبدأ بكل وضوحه وبأعمق معانيه في جهاد الجزائر ضد اعداء الدين فكان في ذلك بعض عدة الجزائر المجاهدة فيما حققته من انتصارات. وأما المبدأ الثانـي فهو (عدم الانتصار بكافر على كافر) وهو المبدأ الذي ادى احياناً إلى اصطدام الجزائر بالخلافة، والذي ارغم دار الخلافة على الخضوع للجزائر في النهاية. فكان في ذلك ايضاً بعض عدة المسلمين في انتصارهم على اعدائهم.

كانت اعمال الجهاد في الجزائر (مبدئية وثابتة) وهو ما تؤكده جميع المواقف وكان الفضل في ذلك لعمق مفهوم تيار الجهاد من جهة، وللتجارب التي اكدت صحة هذا المفهوم في كل المناسبات، وفي كل الحروب التي خاضها المجاهدون في سبيل الله.

وظاهرة وجود (فئة من الخارجين على الاجماع) هي أمر طبيعي عرفته كل المجتمعات في القديم والحديث، وعرفت المجتمعات في القديم والحديث ايضاً ان خطورة (اعداء الداخل) تتزايد في مرحلة ضعف المجتمع وتضعف بزيادة قوته. ومن هنا فإن ظهور قوة (اعداء

الداخل) وزيادة حجمهم وقدرتهم هو المؤشر الثابت على ما يتعرض له المجتمع من الانهيارات. والعلاقة بين قوة المجتمع وقوة اعداء الداخل علاقة جدلية ثابتة. ومن هنا فإن تصفية أعداء الداخل كمرحلة لها الافضلية الاولى في بناء القدرة الذاتية هو أمر اساسي وحاسم (عبرت عنه الثورة الإفرنسية بوضوح عندما عملت على تصفية اعداء الداخل قبل الانطلاق لمجابهة اعداء الخارج) وسبقتها الجزائر عندما دمرت اعداء الداخل ووحدت الجبهة الداخلية قبل أن تنطلق للجهاد ضد اعداء الدين. وهنا ظهرت العلاقة الجدلية والثابتة من جديد فقد كان كل انتصار خارجي للمسلمين يضعف من اعداء الداخل المتعاونين مع الاعداء الخارجيين، وكان ضعف هؤلاء الاعداء الداخليين يؤدي بالتالي إلى زيادة القدرة لقتال الاعداء الخارجيين، وفي الواقع، فإن متابعة مسيرة الاحداث على جبهة الصراع بين الجزائر المجاهدة واعداء الدين تؤكد هذه الحقيقة الجدلية وتبرزها بشكل واضح على امتداد صفحة الجهاد.

وكان عمق تيار الجهاد هو العامل الاساسي في بروز هذه الظواهر وتأكيد فاعليتها واهمية دورها، وهو ما تؤكده ايضاً المقولات الشعرية والنثرية التي حفظتها الاوابد المغربية الاسلامية في الحض على الجهاد وتحرير الارض المغتصبة من ديار المسلمين، فقد بقيت وهران والمرسى الكبير تحت احتلال الاسبانيين طوال قرنين من الزمن في المرحلة الاولى وعلى امتداد خمسين سنة في المرحلة الثانية، كان أئمة المسلمين ومشايخهم وكتابهم وشعراءهم لا يتوقفون عن التذكير بمأساة (وهران) واستثارة الهمم، ولم يكن باستطاعة حكام المسلمين في الجزائر تجاهل هذا التيار المحرض القوي، وهكذا كان تيار الجهاد هو الذي يدفع الحكام ويقودهم ويوجه خطاهم، ولا ينتقص ذلك من

دور هؤلاء الحكام الذين عملوا على التتابع من اجل تنظيم تيار الجهاد واذكاء شعلته وتوجيه فعالياته وقدراته، واطلاق شعلته العالية لاضاءة ظلمات دنيا المسلمين خلال تلك الحقبة التاريخية التي تناوبت فيها المحن والنوائب على كل ديار المسلمين، فكان للجزائر المجاهدة دورها الاساسي والحاسم في رفع قيم الجهاد في سبيل الله، وتأكيد فضائلها في حماية مجتمع الاسلام والمسلمين.

ولقد كان للمسجد (الجامع) دوره في تكوين هذا التيار، واظهرت الاوابد ايضاً، وفي مناسبات كبيرة (اندفاع طلبة العلم والمشايخ إلى مقدمات الصفوف) واعطاء الامثولات في (طلب الشهادة او النصر) وفي (الحض على الجهاد والتحريض على القتال). فليس من الغريب بعد ذلك أن يبقى (القضاء على المسجد) هو الهدف الاول لكل الحملات الصليبية في المشرق كما في المغرب. واذا كان هدف المسلمين من إقامة المساجد هو (الهداية) ورفع (راية الاسلام) فقد بات من المتوقع ان تعمل الحملات الصليبية، وعلى كل الجبهات، من اجل تدمير المسجد وتحويله إلى كنيسة لحرمان المسلمين من عامل صمودهم. وعرفت الجزائر المجاهدة، كما عرف المسلمون ذلك في كل ديارهم، فكان أول عمل لهم بعد كل فتح، هو ترميم المساجد واصلاحها واقامة المساجد الجديدة حتى تتمكن من الاضطلاع بدورها في توحيد كلمة المسلمين، والمحافظة على قدرتهم الذاتية التي يكمن فيها وجودهم.

وهنا لا بد من القول ايضاً، أن دويلات المسلمين في مختلف العصور والعهود، وعلى امتداد المغرب العربي الاسلامي قد عنيت أشد العناية باقامة المساجد والاهتمام بها، واذا كانت هذه الدول قد جنحت في فترة انحطاطها الى التعاون مع اعداء الدين، فقد بقي هذا

التعاون ظاهرة مرضية تعبر عن جنوح مرحلي لم تلبث جماهير (المسجد) أن عملت على تقويمه وتصحيحه.

لقد تعاقب على حكم الجزائر عدد كبير من (البايات والدايات) بداية من الاخوة ذوي اللحى الشقراء، وحتى نهاية الحكم العثماني، بعضهم تألق في سماء قيادة الجهاد، وبعضهم قصرت همته عن بلوغ مرتبة قيادة الجهاد. غير أن تيار الجهاد بقي قوياً وثابتاً، لم يتأثر بتغير الحكام ولم يتحول بتأثير الصراعات الداخلية، ولم يضعف بتأثير الانتكاسات. وبقي (تيار المسجد الجامع) هو التيار المهيمن على الجمهور المسلم، وهو الموجه للحكام على اختلاف قدراتهم وتباين امكاناتهم. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن (تيار المسجد) هو الذي ازال كل التناقضات الداخلية وصهرها جميعها في تيار واحد (هو تيار الجهاد في سبيل الله) لا فارق في ذلك بين تركي وعربي أو مغربي وغير مغربي، فكان في ذلك بعض عدة المجاهدين فيما حققوه من انتصارات متتالية. وقد يكون من غير الضروري بعد ذلك البحث في فضائل (تيار المسجد ـ الجامع) بالمحافظة على تقاليد الجهاد، فالصبر على المكاره، واحتمال كره القتال، والاستعداد الدائم للقتال والإعداد له، والصلابة والتصميم حتى بلوغ النصر الكامل والثبات في مواطن الشدة والخطر كل ذلك هو بعض الفضائل الاسلامية التي تشكلت منها (العقيدة القتالية الاسلامية) والتي ابرزتها صفحة الجهاد على أرض المغرب العربي ـ الاسلامي والحروب البحريه.

بنتيجة ذلك كله، لم تكن حروب الجزائر حروباً نظامية ـ في مفهومها الحديث ـ بقدر ما كانت نوعاً من الحروب الثوروية الحقيقية التي طبقت فيها اساليب الحرب النظامية، واستخدمت فيها اسلحتها، فكانت نموذجاً متقدماً للمزج بين طرائق الحرب النظامية

وطرائق الحروب الثوروية. وكانت هذه الظاهرة هي التي اذهلت قادة الصليبيين الاسبانيين الذين اعترفوا في مناسبات كثيرة (بأنهم لم يعرفوا مثل هذه الحروب) على الرغم من استمرار صراعهم مع المسلمين. ولم يكن ذلك الا بسبب اعتماد الجزائر المجاهدة على اسس (العقيدة القتاليةالاسلامية) والتي شكلت ما يطلق عليه في العصر الحديث اسم (الأصالة الثوروية) وهي الاصالة التي كان لها دورها الثابت في مجابهة كل ما تعرضت له الجزائر من قبل ومن بعد.

وقد يصاب المرء بالذهول وهو يطالع ما جابهته الجزائر المجاهدة عبر تاريخها الطويل، وما تعرضت له من غزوات واعتداءات. لقد كانت وباستمرار في (حرب طويلة الأمد) لا تكاد تنطفىء معاركها حتى تتجدد بقوة اكبر وبعنف اعظم، واشتركت في هذه الحرب الطويلة الامد، كل شعوب الأرض، فاذا كانت اسبانيا الصليبية هي التي تزعمت الحرب الصليبية ضد الجزائر وتركت للبرتغال قيادة هذه الحرب في المغرب الاقصى، فإن الدول الاوروبية الاخرى لم تلبث أن جاءت بدورها للاسهام في هذه الحرب الشاملة، حتى امريكا ذاتها لم تلبث أن جربت حظها في العدوان على الجزائر المجاهدة الصابرة المحتسبة. وانتصرت الجزائر على كل اعدائها. وبقيت (الجزائر المحروسة) نجمًا يتألق في سماء (المغرب العربي الاسلامي) وكوكباً متوهجاً يضيء دنيا الاسلام والمسلمين.

لقد بقيت (الجزائر المحروسة) لأنها حفظت الاسلام فحفظها الاسلام.

وعرفت (الجزائر المحروسة) تلك العلاقة الجدلية الثابتة ايضاً بين دفاعها عن الاسلام والمسلمين، وبين دفاع الاسلام والمسلمين

للمحافظة على وجودها وقدرتها. فكان في ذلك بناء (الاصالة الثورية الحقيقية) التي بقيت الصخرة الثابتة ضد كل اعداء الدين. واعتمدت (الجزائر المحروسة) في تحليقها وفي انطلاقتها على جناحيها الثابتين في المشرق والمغرب. وكان في ذلك التعبير الحقيقي عن (الاصالة الثورية الحقيقية) والتي ستبقى ابداً مصدر قوة (الجزائر المجاهدة) وقوة (المغرب العربي الاسلامي).



قـراءات

١ـ وهران وأدب الحرب

٢ـ ترجمة رسالتين متبادلتين
بين داي الجزائر والرئيس الاميركي

١ـ (وهران) وأدب الحرب

كان بقاء الاحتلال الاسباني لوهران حافزاً استثار شعراء المسلمين فمضوا يحرضون على الجهاد ويحضون على القتال، ويبعثون في النفوس الحماسة ويذكرون الحكام دائمًا بواجبهم لتحرير المقدسات وكان تيار التحريض قوياً ابرزته مجموعة غير محدودة من القصائد الشعرية . منها:

١ـ قصيدة (محمد القوجي الجزائري) يخاطب الداي (أحمد باش خوجة)ـ منها :

ثم التفت نحو الجهاد بقوة	والكفر فاقطع اصله بذكور
جهز جيوشاً كالاسود وسرحن	تلك الجواري في عباب بحور
اضرم على الكفار نار الحرب لا	تقلع ولا تمهلهم بفتور
(. . .) عن وهران ضرس مؤلم	سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذت من مسلمين وكم سبت	منهم (بقرب؟) أسيرة وأسير
حلت بأرض المسلمين فهل لها	من عسكر عند الصباح مغير
يلقي كلاكله عليها بغتة	يأتيهم في غرة المغرور
فانهض بعزمك نحوها مستنصراً	بالله في جد وفي تشمير
بعساكر مثل السيول تزاحمت	للسبق تحت لوائك المنصور

بادرْ بنا نغزو العدو وسارعن في حسم شوكتهم وفي التدبير
اقصد بلاد الكفر شتت شملها خرب بها ما كان من معمور
اقتلهم قتلاً ذريعاً واتركن اشلاءهم صرعى لطعم نسور

٢ـ من قصيدة (محمد بن عبد المؤمن) يحرض الداي (حسن الشريف باشا):

نادتك وهران[١] فلب نداءها وانزل بها لا تقصدن سواها
صرخت بدعوتك العلية فاستجب لندائها ولتكملن مناها
قد طالما عبثت بها أيدي العدا حتى استباحوا أرضها وحماها
وتصرفوا في المسلمين فأصبحت اعجوبة لمن اغتدى يرعاها
اضحى الصليب مؤيداً، والدين قد درست معالمه فلست تراها
جعلوا بها الناقوس في أوقاتهم بدل الأذان وغيروا معناها
كم من أسير حولها لا يفتدى كم من فقير حل في مثواها
يا أيها الملك الذي أيامه غُرر غدت بكماله تتباهى
جرد (قواك) لمحق أثار العدا حتى ترى الاسلام في مغناها
وادع الغزاة لفتحها مستنجداً وانهض اليها وانزلن مرساها
الآن آن الفتح إذ ظهرت به آثار تنبي أنه وافاها

٣ـ ومن قصيدة (لأبي عبد الله سيدي محمد) نظمها سنة ١١١٤ هـ (١٧٠٢ م) لاستنقاذ وهران:

نرجو رضاك فربنا سبحانه مهما رضيت بفتحه يتفضل
إنا توسلنا اليك بسادة اقدامهم فوق الحياة تفضل
فبحقهم الا قضيت حقوقنا وفتحت من باب العدا ما يقفل
أرجعت للاسلام رجعة مشفق والدين ينصر والكوافر تخذل

حتى نرى وهران دار اقامة ... الصلوات يسبقها الاذان المكمل
ونرى بها القرآن يفشو درسه ... والعلم حل بها فنعم المنزل
ويبوء عباد الصليب بحسرة ... لديار كفرهم الشنيع تزلزل
والخيل تمرح في جوانب أرضهم ... سوراً ودوراً بالأسارى تقفل

٤ـ ومن قصيدة (لأبي العباس أحمد أبي على صاحب) في استصراخ المجاهدين لانقاذ وهران:

فمن مبلغ عني ملوك الأقالم ... وكل رئيس من رؤوس العمائم
وكل همام مائل في حمائل ... على متن جار سابق في العزائم
وكل زعيم مولع بحدوده يصيد الضواري من فحول الضراغم
وسلطانها التركي في دار ملكه ... وبين علاه في دهاة العظائم
وجيش بني عثمان من كل قائد ... جيوشاًكموجالبحر عندالتلاطم
يريدون (وهراناً) فما سبق القضا ... بتنفيذه للوقت في جفن عالم
يخوضون لجاً في سفائن رائس ... حراضاً لدين الله عز العزائم
وحرز بنات العرب من كل فاتك ... بابكارها الحرات في قصر ظالم
فيا آل عثمان ويا سادة الوغى ... وكلكم أعماله بالخواتم
ويا معشر الاتراك ما بال سعيكم ... ووهران تزهو نخوة بالمراغم

٥ـ وعندما حرر المسلمون (وهران) انطلق الشعراء لتخليد هذا الحدث. فكان مما قاله الشيخ (أبو زيد عبد الرحمن التلمساني) فيها:

تلت رسل البشائر يوم عيد ... علينا سورة الفتح السعيد
فأحيت من رسوم البشر رسماً ... عفا بالشرك من زمن بعيد

وقل (وهران) يهنيك افتكاك   وانقاذ من الأسر الشديد
لك البشرى وللاسلام اخرى   بمنعك من يد الكفر العنيد
أتذكر حين كنت مناخ شرك   فصرت مقام شكر للحميد
وكنت مقام تثليث فأضحى   يقرر فيك توحيد المجيد
جزى جيش الجزائر كل خير   اله الخلق ذو الملك العتيد
هم المستنقذوك وقد أحاطت   بك الأعداء تطمع في المزيد

٦ـ ومن قصيدة (لأبي عبد الله محمد ـ المعروف بابن يوسف الجزائري):

مولاي فضلك للكروب مفرج   وبتاج عز الله أنت متوج
جهزت حقاً للجهاد عساكراً   كرب الورى بقربهم يتفرج
كم قاتلوا الأبطال يوم الملتقى   حتى محوا داجي الضلال وفرجوا
وحياهم المولى بنصر عندما   ركبوا المطايا للجهاد وأسرجوا
حتى قضوا حقاً (لوهران) التي   أمواج بحر ضلالهم تتموج
فرت خيول المشركين أمامهم   لما رأوا برق الهدى يتورج
عادت إلى الاسلام داراً مثلما   كانت، وصارت ريحها تتأرج
أضحى مؤذنها يحيعل تارة   وبها يهلل تارة ويهزج
وقراءة القرآن في أرجائها   منها نتائج الاستقامة تنتج
والدين أصبح قيمًا وكفى بها   من نعمة عنا الكروب تفرج

٧ـ ومن قصيدة للشيخ (محمد بن محمد بن علي بن سيدي المهدي الجزائري):

وهل طاوعت (وهران) قبل مملكاً   سواه فأضحى أنفها وهو راغم
فكم سامها من لا يناهضها وكم   حوالي حماها حام بالزور حالم
تملكها حزب الشقاء ولم يكن   زماناً لحزب الحق عنها مخاصم

بها يسمع الناقوس من نحو فرسخ ومن لغة الكفار عنه تراجم
وفي كل يوم صيحة من خيولها ينوح لها الاسلام، والشرك باسم
زهى واعتلى التثليث فيها ونكست لما دهم التوحيد منه الغمائم
فقيض للفتح المبين مهنداً، رقيق الشبا، صلب الصفيحة، صارم
إمام سقى الكفار كأس منية لهم شبه بالنمل والسيف حاطم
لقد صال فيهم صولة هاشمية فأمرهم في الحرب حيران واجم
وعاد (لوهران) السنية ريها وحن اليها عهدها المتقادم

٨- ومن أرجوزة للشيخ (أبو عبد الله محمد التغيرلي) من مدينة الجزائر في تاريخ تحداث وهران:

الحمد لله الذي قد فتحا وهران من أيدي الرجال الصلحا
وقهر القوم اللئام الفجرة ورفع الاسلام فوق الكفرة
في مدة السلطان فخر الناس (أحمد) خاقان أبي العباس
من ملك البرين والبحرين ومصر والشام بدون مين
للحرمين خادم طول المدى دام انتصاره على جمع العدا
يا سائلاً عما بوهران ظهر من أخذها وفتحها كما اشتهر
أخذها الكفار بالثبات مما رويناه عن الثقات
سنة أربع وعشرة مضت من بعد تسعمائة قد كملت
فمئتان مع خمس سنين عدد مكثها بأيدي المشركين
ثم بعد العزم من الاله قد جاءنا الفتح بنصر الله
ففتحت سنة تسعة عشر ومائة من بعد ألف تعتبر
في سادس العشرين من شوال صبيحة الجمعة خذ مقالي
عن يد من قد صير الجزائر جنة كل قاطن وزائر
محمد بكداش فخر الدولة وحسن صهره عالي الصولة[1]

(١) (حرب الثلاثمائة سنة) احمد توفيق المدني ص ٤٣٨- ٤٤٢- و٤٦٦- ٤٧٢.

٢- ترجمة رسالتين متبادلتين

بين داي الجزائر والرئيس الاميريكي سنة ١٨٢٥

أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة الامريكية في ١٢ نيسان-ابريل- ١٨٢٥، بسبب استغلال امريكا لاتفاقياتها مع الجزائر بطريقة سيئة، وبسبب عدم وفاء امريكا بالتزاماتها. وأرسل الرئيس الامريكي (جيمس ماديسون) رسالة إلى الداي تضمنت ما يلي:

(لقد أعلنتم سموكم الحرب على الولايات المتحدة، وقد قرر الكونغرس في اجتماعه الأخير اعلان حالة الحرب مع حكومتكم، وكلف اسطولاً من بواخرنا بالتوجه إلى البحر الأبيض المتوسط لتنفيذ ذلك القرار. وسيكلف هذا الاسطول تخييركم بين الحرب والسلام، وانتم وما ترون، ولنا وطيد الأمل أن توازنوا بين ويلات الحرب ومزايا حسن التفاهم مع أمريكا التي تزداد قوتها مع الزمن، فتجنحوا الى استئناف ما كان بين الحكومتين من علاقات الود والصداقة، وليس لحكومتنا هدف الا السلام والصداقة مع الجميع).

وأجاب الداي (عمر) باسم الحكومة الجزائرية على ذلك -بعد أن حدد شروط الصلح، وتضمنت رسالته:

(واني ابلغكم رغبة حكومتي في استئناف علاقات الصداقة التي

ربطت بين بلدينا منذ اكثر من عشرين سنة، ولا سيما ان أمريكا كانت أول دولة عقدت معها حكومتي معاهدات سلام. ونتمنى بعون الله أن يأتينا ردكم سريعاً بالموافقة على شروطنا الموضحة آنفا، أما اذا رفضتم الموافقة عليها، فإنكم تتحملون وزر خرق قوانين الانسانية المقدسة، والاعتداء على مواثيق الامم).

وقد رضخت أمريكا لشروط الداي وتم الصلح.

(تاريخ الجزائر - مجاهد مسعود - ص ١٠٤)

المراجع

(١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا - احمد توفيق المدني - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٧٦.

(٢) تاريخ الجزائر - تأليف الاستاذ مجاهد مسعود - الجزء الاول.

(٣) العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة - اسماعيل العربي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٧٨.

(٤) تاريخ الجزائر الحديث - الدكتور ابو القاسم سعد الله - معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية - ١٩٧٠.

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٧٤). ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي.

الفهرس